@Tafsircenter

الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم

مُحدّدات استحسانه، وسر شيوعه، وأغراضه

الأسماء الحسنى نموذجًا

د. محمود عبد الجليل روزن

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

الملخص:

قد يخالِف البليغُ مُقتضى الظاهر، فيُصرِّح بالاسم في الموضع الذي يقتضي إضماره، ويُضْمِرُه في الموضع الذي يقتضي إظهاره؛ وذلك لأغراض لا يتأتَّى مراعاتها أو التنبيه عليها بالالتزام بمقتضى الظاهر. ومما لا يعسر إدراكه على المستظهِر للقرآن الكريم وغيره من النصوص العربية الموسومة بالبلاغة أنَّ هذا الأسلوب يجري في القرآن الكريم أكثر بكثير مما يقع في غيره من الكلام العربي البليغِ، وأنَّه أكثر ما يكون بإظهار الأسماء الحسنى -لا سيما الاسم الأجَلّ واسم الربّ- في مقامات إضمارها. ولمَّا كان الإظهار في مقام الإضمار نوعًا من التكرار الأسلوبي، وكانت النفوس مجبولة على مُعاداة المُعاداتِ؛ تصوَّر بعضُ ممَّن قلَّ في البلاغة حظُّه، ونبا عن البيان لفظُه؛ أنَّه يمكنه الحطُّ على البلاغة القرآنية من جهة هذا الأسلوب، فجاء هذا البحث كاشفًا عن جماليات إظهار الأسماء الحسنى في موضع إضمارها؛ بترسيم حدوده واستنباط معايير استحسانه واستهجانه، وتتبُّعِ أغراضه، والتنقيبِ عن دقائقه ولطائفه؛ مُنبِّهًا على أنَّ لأسماء الله تعالى خصوصية ليست لغيرها فيما يتعلَّق بتعليل أغراض إظهارها في مقام إضمارها، وإذا كان الواجب على المتدبِّر للقرآن أن يجتهد غاية الاجتهاد في تأمّله، ثم يتمهَّل في قبول ما يقع له من ثمرات تأمُّلِه؛ حتى يختبر جوازه؛ فإنَّ ما كان من ذلك متعلِّقًا بأسماء الله الحسنى أحقُّ بالتدقيق والتحقيق.

وعليه؛ قسَّم البحثُ الأغراض العامَّة المستنبطة للإظهار في مقام الإضمار من حيث صلاحيتها لتفسير التصريح بالأسماء الحسنى في مواضع الإضمار إلى أربعة أقسام: أغراضٌ يمكن أن يُقال بها في جميع مواضع إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار، وأغراض لا يمكن أن يُقَال بها، ولا تقع في كلام المؤمنين العارفين بالله وأسمائه وصفاته، وأغراض لم تقع -في حدود البحث- في هذا الباب، وأغراض تحتمل أن تكون مرادة في مواضع دون مواضع.

وتتبَّع البحث في معقده التطبيقيّ أغراض إظهار الأسماء الحسنى في مقام إضمارها في القرآن الكريم، بالشرح الوافي والتمثيل الكافي؛ مضيفًا أغراضًا صالحة لتفسير إظهار أسماء الله الحسنى في موضع إضمارها، لم تتناولها الدراسات السابقة؛ مع تقديم الأمثلة عليها.

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وليُّ الصالحين، وأشهد أنَّ محمدًا عبده المصطفى ونبيّه المجتبى إمام المرسلين، ورحمة الله للعالمين، وشفيع الأمة يوم الدِّين، صلوات ربي وتسليماته عليه وعلى آله وأصحابه الغُرّ الميامين.

وبعدُ؛ فالأصلُ في الكلام البليغ أنَّه إذا أراد المتكلِّمُ التعبيرَ عن اسمٍ عَلَمٍ فإنَّه يُظهره صريحًا، فإذا تكرَّر ذِكْرُه في الكلام بعد ذلك، فإنه يذكره بالضمير المناسب الذي يعود عليه؛ اختصارًا واستغناءً عنه بالظاهر السابق، وبأنَّ المستمع يفهم من السياق ما يَعود عليه الضمير. فالقاعدة فيما يتعلَّق بالإظهار والإضمار أنَّ الاسم يُظهَرُ أوَّل مرّة ثم يُضْمَرُ إذا جرى ذِكْرُه بعد ذلك.

ولكن كثيرًا ما يُخَالَف في الكلام الفصيح البليغ تلك القاعدة، فيُظهَر الاسمُ في الموضع الذي يقتضي في الظاهرِ الإضمارَ، ويُضْمَر في الموضع الذي يقتضي الإظهارَ؛ وذلك لأغراض لا يتأتَّى مراعاتها أو التنبيه عليها إلا بمخالفة مقتضى الظاهر، وهنا يخالف مقتضى الحالِ مقتضى الظاهر.

والناظر في كلام العرب وأشعارهم يجدهم يضعون الظاهر موضع المضمر كثيرًا، ولكن بأدنى تأمُّل يكتشف أنه لا يمكن أن يوازن بين شيوعه في كلامهم وبين شيوعه في القرآن الكريم، ففي القرآن الكريم لا تكاد تفقده في صفحة من المصحف، بل ربما جرى في الآية الواحدة مِرارًا، ولا يحتاج

المُستظهِر للنصِّ القرآني ولكثيرٍ من كلام العرب نثرًا وشِعْرًا =إلى كبير مجهودٍ ليقطع أنَّ هذا الأسلوب في القرآن الكريم أجرى منه بكثير في سائر كلام العرب.

ولمَّا كان التصريح بالاسم في مقام إضماره تكرارًا في ظاهره، وكانت النفوس مجبولةً على استثقال التكرار؛ فإنَّ بعض مَن لم ينشغل بالتنقيب عن أسرار البلاغة العربية عمومًا والبلاغة القرآنية خصوصًا؛ يبادرون إلى عدِّ هذا التكرار عيبًا في الكلام، فيعيبون به القرآن الكريم، ويتذرَّعون بذلك إلى الطعن في بلاغته.

من جهة أخرى؛ فإنَّ هذا الأسلوب -وإن كان بعض المفسِّرين قد نوَّهوا به وتتبّعوا أغراضه- لم يستوفِ حقَّه من النَّظر والتأصيل، فتجد بعضَ مَن تعرّض له من البلاغيين والمفسِّرين لم يطوِّل النَّفَس في تتبُّع أغراضِه، واستنباطِ جمالياته، وبعضَهم اكتفى بالإشارة إلى أشياء من ذلك في بعض المواضع القليلة، ثم تجد الأكثرين لم يقفوا عنده من الأساس.

وقد كُتِبَ في الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم بعضُ الأبحاث الأكاديمية، ولكنها -في تقدير الباحث- لم تخرج كثيرًا عن فلَك ما سطره البلاغيون أوائلُهم ومتأخِّرُوهم، ولم تُطَوِّر البحثَ في أغراضه وجمالياته، ولم تَطرُق في جوانبه التطبيقية مجال الموضوعات القرآنية، فهي -على ما فيها من فوائد- لا تخرج عن تناوله من خلال رؤية مُفسِّرٍ من المفسِّرين كأبي السعود العمادي والطاهر ابن عاشور، أو في نطاق سورة معيّنة. فمن أمثلة الأول بحث:

(أسلوب الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم: أغراضه وبلاغته؛ دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير الإمام أبي السعود العمادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، للدكتور/ محمد أحمد محمود شلبي، نُشر بمجلة كلية أصول الدين والدعوة، العدد السابع والثلاثين، ٢٠١٩م.

ومن أمثلة الثاني بحث: (الإظهار في مقام الإضمار وأسراره؛ دراسة نظرية تطبيقية على سورة الأنفال)، للدكتور/ أحمد إمام عبد العزيز عبيد، نشر بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ، العدد الأول – المجلد السادس، ٢٠١٧م.

ولمَّا كان المتأمّلُ للنصِّ القرآني لا يلبث أن يكتشف بيُسرٍ أنَّ الإظهارَ في مقام الإضمار أكثر ما يَرِد في الأسماء الحسنى؛ فتناولُهُ تطبيقًا موضوعيًّا من خلال الأسماء الحسنى يَعِدُ بثروة نفيسة، ويبشِّر بنتائج طيبة.

فلِمَا سبَقَ، ولأنَّ الحديث في الأسماء الحسنى أشرفُ العلم لشرفِ موضوعه، فإنَّ البحث الذي بين يدي القارئ الكريم قد أخذ على عاتقه العكوفَ على التنقيب عن مكنون جماليات إظهار الأسماء الحسنى في مواضع إضمارها؛ ليجيبَ من خلال قوانينَ علميةٍ منضبطة بعيدة عن العاطفة عن استشكال بعضهم كثرةَ وقوعه في القرآن الكريم، ويتلمَّس أغراضه، ويحاول أن يُصنّفها تصنيفًا يُبنى عليه، ويُحتذى في البحوث المستقبلية.

أسئلة البحث:

يمكن إجمال الأسئلة الرئيسة التي ينطلق منها هذا البحث، ويتغيَّا الإجابة عنها؛ فيما يأتي:

١- ما الذي أشاع الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم أكثر من شيوعه في سائر الكلام العربيّ البليغ؟

٢- هل يمكن استنباطُ مُحدِّداتٍ قياسية يُرتَفَقُ عليها في الحكم على رتبة الإظهار مقام الإضمار استحسانًا واستقباحًا؟

٣- ما أغراض إظهار الأسماء الحسنى في مقام إضمارها؟ وما جمالياته؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة رُسِمَت خطة البحث في مبحثين:

المبحث الأول: عالجَ الموضوعات الآتية:

المطلب الأول: الإظهار والإضمار بين الأصالة والنيابة.

المطلب الثاني: معايير التحسين والتقبيح للإظهار والإضمار في الكلام البليغ.

المطلب الثالث: سِرّ شيوع الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم.

المطلب الرابع: أغراض الإظهار في مقام الإضمار؛ نظرة تاريخية.

الأغراض الصالحة لإظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار.

المبحث الثاني: رُتِّب على تتبُّع أغراض إظهار الأسماء الحسنى في مواضع إضمارها في القرآن الكريم؛ مع التمثيل الوافي لكلِّ غرضٍ منها، وتحليل جمالياته.

اللهم إني أسألك بأني أشهد أنَّك أنت الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد: حُسنَ المددَ، وتهيئةَ الرَّشَد، إنَّك أنت الأجلُّ الأمجد.

المبحث الأول

المطلب الأول: الإظهار والإضمار بين الأصالة والنيابة:

الأصلُ أنَّه إذا أراد المتكلِّمُ التعبيرَ عن اسمٍ عَلَمٍ فإنَّه يُظهره صريحًا، فإذا تكرَّر ذِكْرُه في الكلام بعد ذلك، فإنه يذكره بالضمير المناسب الذي يعود عليه؛ اختصارًا واستغناءً عنه بالظاهر السابق، وبأنَّ المستمع يفهم من السياق ما يَعود عليه الضمير. فالقاعدة فيما يتعلَّق بالإظهار والإضمار أنَّ الاسم يُظهَرُ أوَّل مرة ثم يُضمَرُ إذا جرى ذِكْرُه بعد ذلك.

ولكن كثيرًا ما يُخَالَف في الكلام الفصيح البليغ تلك القاعدة، فيُظهَر الاسمُ في الموضع الذي يقتضي الإضمار، ويُضْمَر في الموضع الذي يقتضي الإظهار. وذلك لأغراض لا يتأتّى مراعاتها أو التنبيه عليها بالالتزام بمقتضى الظاهر.

والذي يُهمُّنا في هذا المقام: الإظهار في مقام الإضمار، وأمّا الإضمار في مقام الإظهار فخارج ما تقصَّدَتْه الدراسة في هذا المقام، ولعلّنا نُفرِد له بحثًا بإذن الله تعالى؛ نركِّز فيه على إضمار الاسم الأجلّ في مواضع إظهاره.

ومن مُسوّغات التصريح بالمظهر في موضع المضمر أنَّ الاسم الظاهر أشدُّ تمكُّنًا من الضمير، وأنَّ المراد منه لا يحتمل من اللَّبْس ما يحتمله مرجع الضمير.

ثم إنَّ الضمير -وإن أدَّى وظيفتَه في استحضار الصورة الذهنية للاسم الذي يعود عليه- ليس له وقع الاسم الظاهر في السمع، فإنَّ في لفظ هذا الاسم

وجرسه ووقعه في الآذان، وارتباطاته التي نمَتْ في نفس السامع منذ طَرَق هذا اللفظ أُذنه للمرّة الأولى، ثم في كلِّ مرّة سمعه فيها، مع ما يرتبط بها من أحداث ومواقف = تأثيرًا لا يبلغه المضمَر[1].

إنَّ مَثَلَ الضمير والاسم الظاهر في هذا كمثل رَجُلٍ أراد أن يُخصِّص لرفيقه الغائب مقعدًا بجواره في مجلسٍ ما، فوضع حقيبة على هذا المقعد لئلا يجلس عليه أحدٌ؛ حتى يحضر رفيقه، فيُنحِّيَ الحقيبة، ويجلس مكانها. فإذا نظر قبل حضوره إلى المقعد ورأى الحقيبة تذكَّر رفيقه، ولكن تذكُّره له واستحضاره لصورته وخصاله لا يرقى لما يحصل له من ذلك إذا نظر إلى رفيقه بشحمه ولحمه، مع التسليم بأنَّ الحقيبة قد أدَّت غرضها في النيابة عنه في مقام معين نيابةً تامَّةً.

فإذا كان الضمير يفيد الاختصار، ويُجنِّب البليغَ ارتكاب التكرار المُستثقَل؛ فإنَّ جماليات التصريح بالاسم الظاهر نفسه في بعض المواضع قد تكون أكبر بكثير من معايب التكرار والإطناب. وعلى البليغ أن يتخيَّر لذلك مواضعَه، وأن يراقب مقاماتِه؛ متى يُظهِر، ومتى يُضمِر، وكيف يفعل كُلًّا، فبذا يتبيَّن البليغُ من العَيِيّ، والصريحُ من الدَّعِيّ.

(١) انظر: خصائص التركيب، لأبي موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م، ص٢٤٨.

والناظر في كلام العرب البليغ وأشعارهم العالية يجدهم يضعون الظاهر موضع المضمر كثيرًا، ولكن بأدنى تأمّل يكتشف أنه لا يمكن أن يوازن بين شيوعه في كلامهم وبين شيوعه في القرآن الكريم، ففي القرآن الكريم لا تكاد تفقده في صفحة من المصحف، بل ربما جرى في الآية الواحدة مِرارًا، ولا يحتاج الأمر إلى استقراء مُوسَّعٍ لتقطع أنَّ هذا الأسلوب في القرآن الكريم أجرى منه بكثيرٍ في سائر كلام العرب.

المطلب الثاني: معايير التحسين والتقبيح للإظهار والإضمار في الكلام البليغ:

إنّ العلاقة بين الظاهر والمضمر أنَّ كُلًّا منهما يتعيّن في مواضعَ، وهذه المواضع يكفي المتحدِّث فيها أن يكون على دراية بقوانين اللغة والنحو وقوانين البيان الأولية؛ ليضع كُلًّا في موضعه اللائق به، ومثل هذا لا يتبيّن به قدر ما بين الكلامين، وإنما الذي يبيّن قدر ما بين كلام وكلام هو القرار الذي يتخذه المبين في المواضع التي يجوز فيها كلاهما، فوَضْعُ الظاهرِ موضعَ المضمر قضاءٌ بيانيٌّ -إن جاز التعبير- يقضيه المتكلّم أو الكاتب: هل حَقُّ البلاغة هنا الإظهار أم الإضمار؟ وهذا الحُكم يتوقف على أمورٍ جِماعُها في الموازنة بين الإطناب والتكرار وما قد يلابسهما من العيب من جهة، وبين الاستفادة من قوة المُظهَرِ مكان المُضمَر من جهة أخرى؛ ولهذا كان الإظهار في موضع الإضمار في المواضع الجائزة مخاطرةً لها تَبِعَاتها.

ولعلَّ هذا هو السبب الحقيقيّ الذي من أجله أطلق ابن جِنِّي على بعض الأساليب؛ مثل الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى؛ مصطلح «شجاعة العربية»[(١)]، وقصره ابن الأثير الجزري على أسلوب الالتفات، قال: «وإنما سُمِّي بذلك؛ لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل

(١) الخصائص، لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، (٢/ ٣٦٢).

الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورَّد ما لا يتورَّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختصّ به دون غيرها من اللغات»[(١)].

ويرى الباحثُ أنَّ وضع الظاهر موضع المضمر من أحقِّ الأساليب بهذا الوصف، فهو كما قلنا مخاطرةٌ لا يُقدم عليها إلا شجاعٌ، ويتوقَّف في شأنها -استعمالًا وتقويمًا- مَن هو دونه، حتى رأينا مَن يتوقَّف في تفصيح هذا الأسلوب، بل يردُّون قراءات عشرية بأنَّ فيها إظهارًا في موضع الإضمار؛ كما ضعَّف بعضهم قراءة الكسائي: ﴿أَنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ بفتح همزة (إنَّ)[(٢)]، قالوا: لأنَّ قبلها: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فصرَّح بالاسم الأجلِّ، فلما فُتحت الهمزة اتصلت الجملتان، وكان مقتضى اتصالهما أن يُعاد لفظ الجلالة مضمرًا، فيقال: (أنَّ الدين عنده الإسلام)[(٣)].

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير الجزري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ (٢/ ٣). وانظر: جوهر الكنز، لابن الأثير الحلبي، ص١١٨. واختصاص العربية به محلُّ نظرٍ؛ فالحكم بذلك يحتاج لاستقصاء كلّ لغات البشر، واللغة ظاهرة إنسانية، وكلُّ إنسان قد يجد في نفسه ما يجده العربيُّ فيحمله على تلوين الخطاب بصوره المختلفة. انظر: تلوين الخطاب؛ دراسة في أسلوب القرآن الكريم، لأحمد تيجان صلاح، نشرة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الإصدار (٨٦)، ط١، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م، ص٨٣، ٨٤.

(٢) انفرد الكسائي عن العشرة بقراءتها بفتح الهمزة، وقرأ سائرهم بكسرها: (إنِّ الدين). انظر النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٥/ ١٦٥٠).

(٣) نقله أبو جعفر النحاس وردَّه في القطع والائتناف، دار عالم الكتب، المملكة السعودية، ط١، ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م، ص١٣٠.

وكذلك؛ ردَّ بعضُهم قراءة يعقوب: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾[التوبة: ٤٠] بفتح التاء من (كلمةَ)[(١)]؛ عطفًا على (كلمةَ) الأولى من قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ أي: (وجَعَلَ كلمةَ الله هي العليا)، فاعترضوا على ذلك لأسباب؛ منها: أنَّه أظهر في مقام الإضمار، وكان يجب أن يُقال: (وكلمتَه هي العليا)؛ أي: وجعل كلمتَه[(٢)].

وبعضهم يعلِّل الإظهار في موضع الإضمار في الشِّعْر بمجرّد إقامة الوزن، ولو وقع مثله في النثر لأُظهر، فهذا أبو الفرج النهرواني (ت ٣٩٠هـ) يُعَلِّق على بيت أبي النشناش النَّهشلي:

فمتْ معدمًا أو عِشْ كريمًا فإنني ... أرى الموتَ لا ينجو من الموت هاربه

(١) انفرد يعقوب عن العشرة بقراءة (وكلمة الله) بنصب تاء التأنيث، ورفعها سائرهم. انظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٥/ ١٧٢٤).

(٢) وردَّه أبو جعفر النحّاس [إعراب القرآن ٢/ ١١٩- ١٢٠] بقوله: «وهذا [يعني قراءة النصب] جيد حسن؛ لأنه لا إشكال فيه، بل يقول النحويون الحذاق: إنَّ في إعادة الذِّكر في مثل هذا فائدةً، وهي أنَّ فيه معنى التعظيم. قال الله جل وعز: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٢] فهذا لا إشكال فيه».

فيقول النهرواني: «فأتى بالموت ثانيًا بالإظهار في الموضع الذي بابُه الإضمار؛ لتقدّم اسمه ظاهرًا؛ لإقامة وزن الشِّعْر، ولو أتى به في منثور الكلام لكان أَظْهَرَ، ونحو هذا أن تقول: فإنني أرى الموت لا ينجو منه هاربه»[1].

ولا نوافِقُ النهروانيَّ على مذهبه، فإنَّ جمال هذا البيت ومعقد حُسنه هو إظهار لفظة الموت ثانيًا، ففيه من الفخامة ما فيه. ولو أَضمر لما كان له هذه السطوة، ولو استقام في الوزن، وإقامته سهلة ميسورة لو قال مثلًا: (فإنني أرى الموت لا ينجو هنالك هاربُه)، أو نحو ذلك. فما كانت إقامةُ الوزن بغير إظهار (الموت) ثانية لِتُعنِّيَ شاعرًا مطبوعًا.

وعَدَّ محمد بن جعفر القيرواني (ت ٤١٢هـ) مما يجوز للشاعر في الضرورة إظهار الضمير في الموضع الذي أنت مُسْتَغْنٍ عن إظهاره فيه؛ وذلك مثل قولك: ما زيدٌ منطلقًا أبوه، فالهاء في أبيه ضمير زيد، فأنت مُستغنٍ بها عن إظهاره، فلو أظهرته فقلت: ما زيدٌ منطلقًا أبو زيد، وزيدٌ الأول زيدٌ الثاني، لم يجز في الكلام، وجاز في ضرورة الشِّعر، ومنه قول الشاعر[2]:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ ... نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفَقِيرَا

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، للنهرواني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م، ص٥٢١.

(٢) هو عدي بن زيد العبادي، انظر ديوانه، ص٦٥.

وكان الوجه أن يقول: لا أرَى الموتَ يسبقُه شيءٌ، ولكن أظهر الضمير اضطرارًا[(١)].

وما عدَّه القيرواني ضرورةً عدَّه الحُذّاق بلاغةً، فقد ذهب المحقِّقون أنه أعاد ذِكْر الموت تفخيمًا وتقريرًا وتخويفًا[(٢)].

وقال ابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ): «وقد تُكرِّر العربُ ذِكر الاسم، على غير وجه الإشارة والاستطابة [يعني التلذّذ]، ولكن لضرب من المبالغة، أو على وجه الضرورة، فإذا كان ذلك في جملتين حسن الإظهار والإضمار؛ لأن كلّ جملة تقوم بنفسها، كقولك: جاءني زيد، وزيد رجل فاضل. وإن شئتَ قلت: وهو رجل فاضل. وإذا كان في جملة واحدة قبح الإظهار، ولم يكد يوجد إلا في الشِّعْر»[(٣)].

---

(١) ما يجوز للشاعر في الضرورة، لمحمد بن جعفر القيرواني، ص١٧٣، ١٧٤.

(٢) انظر على سبيل المثال: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١/ ٤٥٦)، ومعاني القرآن، للنحّاس (١/ ٣٨٤- ٣٨٥)، والقطع والائتناف، له (ص٤٣)، والتفسير البسيط، للواحدي (٢/ ٥٦٣- ٥٦٤)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص٢٩، ٨٨، ٥٦٨، ٥٦٩، والبرهان في متشابه القرآن، للكرماني، ص٣٢٨- ٣٢٩، وشرح أدب الكاتب، للجواليقي، ص٨٥، ٨٦، وأمالي ابن الشجري (١/ ٣٧٠- ٣٧١).

(٣) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٩٦م (٣/ ١٩٥).

ويُرَدُّ عليه بوقوعه في القرآن كثيرًا في جملة واحدةٍ، فصار الأمر بحاجة إلى نَظَر ثاقبٍ مُتأنٍّ لاستنباط معايير قويمة للحُكْم على الإظهار في مقام الإضمار بالاستحسان أو الاستقباح. ونحن نوافق أنَّ بعض الإظهار في موضع الإضمار مَعيبٌ مستقبَحٌ، لا يتوقَّف في استهجانه ذو ذائقة.

وقد حاول الراغب الأصفهاني (من علماء القرن الخامس الهجري) أن يضع قانونًا يُفرّق به بين المستحسَن والمستهجَن من ذلك، فقال: «إن قيل: كيف قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وكرّر لفظ (الله) ثلاث مرات، ولم يعدل إلى الكناية، وهل ذلك في استقباح خَطّ الإعادة لولا شرف لفظ (الله)؟ كقول الشاعر: (فما للنوى جُذَّ النوى قُطِعِ النوى)؛ حتى قيل: (سَلَّطَ اللهُ على هذا البيت شاةً ترعى منه النوى!)[1]، وكقول الآخر[1]:

(١) الشطر بهذه الرواية لم أقف على قائله، وقد أورده الصاحب ابن عبّاد في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م، ص٥٢، فقال: «وما أحسن ما قال الأصمعي لمن أنشده:

فما للنوى جُذَّ النوى قُطِعِ النوى كـذاك النوى قطاعــةٌ لوصـــال

لو سلط الله على هذا البيت شاة لأكلتْ هذا النوى كلّه».

وللطِرِمَّاح:

فما للنوى لا بارك الله في النوى وهمٌّ لنـا منها كَهَمِّ المُراهِـنِ

=

بجهل كجهل السيف والسيف مُنتضًى وحلم كحلم السيف والسيفُ مُغمَدُ

فاستُرذل البيت لإعادة لفظ (السيف) مرارًا.

قيل: إنّ ذلك بعيد عن الآية، فإنّ البيت الأول استُقبح لا لإعادة النوى فقط؛ بل له، ولأن قول: (جذَّ النوى قطع النوى) بمنزلة واحدة.

ولهذا الباب قانون يُعْرَف به المستقبَح من المستحسَن، وهو أنَّ كلّ تكرير على طريق تعظيم الأمر وتحقيره في جمل مواليات، كلّ جملة منها مستقلّة بنفسها؛ فذلك غير مستقبح. وإذا كان ذلك في جمله واحدة أو في جُمل في معنى واحد، أو لم يكن فيه التعظيم أو التحقير، فذلك مُستقبح. وهذا ظاهر في الآية والأبيات المذكورة، فإنما قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢] جُمَلٌ في معانٍ مفترقة؛ فإنّ الأول: حثٌّ على تقوى الله، والثاني: تذكير بنعمه، والثالث: تعظيم له متضمّن لوعد ووعيد شديد، وقُصِدَ تعظيمُ كلِّ واحد من هذه الأحكام، فأُعيد لفظ (الله) فيها.

=

انظر ديوانه، ص٢٦٣.

(١) هو ابن الرومي، انظر ديوانه (١/ ٣٧٧).

فأمّا البيت الثاني: فهو جملة واحدة؛ لأنّ قوله: كجهل السيف في موضع [الصفة] لقوله: بجهلٍ، وكذلك قوله: (والسيف مغمد) جاء [حالًا] لقوله: كحلم السيف.

وعلى قول الآخر: (لا أرى الموت يسبق الموتَ شيءٌ)؛ فإن قوله: (يسبق الموت) مفعول ثانٍ، لقوله: (لا أرى)، والكلام كلّه جملة واحدة، وهذا ظاهر»[(١)].

واستهجان الراغب لبيت النوى لا خلاف فيه، والبيت ساقطٌ مصنوعٌ غير مطبوعٍ؛ لما فيه من التكرار المبالغ فيه من غير ضرورة يقتضيها المعنى.

وأمَّا بيت (الموت) فلا يوافَق عليه، بل جِلَّة أهل العلم على استحسانه، واستحسان تكرار إظهار لفظ الموت فيه، كما أُشيرَ إلى ذلك قريبًا، فالمقام يحتمله.

وكذا بيت ابن الرومي هو مما استحسنه المحقّقون، ذَكَر الجرجاني أنَّ الصاحب حُكي عنه أنَّه قال: كان الأستاذُ أبو الفَضْل [ابن العميد] يختار من شِعر ابن الرومي، ويُنَقِّط عليه. قال: فدفع إليَّ القصيدةَ التي أوّلها: (أتحْتَ ضلوعي جمرةٌ تتوقدُ)، وقال: تأمّلْها! فتأمَّلْتُها، فكان قد ترَك خيرَ بيتٍ فيها وهُو:

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٥٩١).

بجَهْلٍ كَجَهْلِ السَّيْفِ والسيفُ مُنْتَضًى وحِلْمٍ كَحِلْمِ السيفِ والسيفُ مُغْمَدُ

فقلتُ: لِمَ ترك الأستاذ هذا البيت؟ فقال: لعلَّ القلم تجاوزه. قال: ثم رآني من بعدُ، فاعتذر بعذر كان شرًّا من تركه. قال: إنما تركتُه لأنه أعاد (السيف) أربع مرات. قال الصاحب: «لو لم يُعِده أربع مرات فقال: (بجهل كجهل السيف وَهْوَ منتضًى .. وحلم كحلم السيف وَهْو مغمد)؛ لفسد البيت».

قال الجرجاني مُعقِّبًا: «والأمر كما قال الصاحب، والسبب في ذلك أنك إذا حدثت عن اسم مضاف ثم أردت أن تذكر المضاف إليه؛ فإن البلاغة تقتضي أن تذكره باسمه الظاهر ولا تضمره»[(١)].

وفي كلام الجرجاني الأخير نظر؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام: ٨٨]، فأضاف إلى لفظ الجلالة ثم أضمره، ولم يقل: (يهدي الله به)، وقال في حكاية قول فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، ولم يقل: (لأظنُّ موسى)، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، ولم يقل: (نؤته من الدنيا)، فأعاد المضاف إليه في كلِّ هذا مُضمرًا، والأمثلة على ذلك كثيرة.

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص٥٥٥.

ثم ذكر الجرجاني شواهد من الشِّعْر تقضي بحسن الإظهار في موضع الإضمار، ثم قال بعدها: «ليس بخفيّ على مَن له ذوق أنه لو أتى موضع الظَّاهر في ذلك كلّه بالضمير... لعُدِمَ حُسنٌ ومَزيّةٌ لا خفاء بأمرهما، وليس لأنَّ الشِّعْر ينكسر، ولكن تُنكره النفس...

ثم ذكر عن أبي يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي قوله: أمَا علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشيف؟»[1].

وأمَّا استحسان الراغب ما كان في جملتين، واستقباحه ما كان في جملة واحدة؛ فمردود بوقوعه في القرآن في جملة واحدةٍ، في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾[الأنعام: ١٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾[النساء: ٦٤]. وهذا في القرآن أكثر من أن يُحصى.

ولكن يمكن أن يُبنى على المحدّدات والمعايير التي ذكرها الراغب لتقويم بلاغة الإظهار في مقام الإضمار:

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص٥٥٦.

١. فإذا أعيد الاسم في جملة مستقلّة لفظيًّا عن الجملة التي ذُكِر فيها أولًا كان إظهاره مُحتملًا. قال الزركشي: «سؤال وضع الظاهر موضع المضمر [يعني ما يُستشكل من ذلك] حقُّه أن يكون في الجملة الواحدة نحو: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١- ٢]، فأمّا إذا وقع في جملتين فأمره سهل، وهو أفصح من وقوعه في الجملة الواحدة؛ لأنّ الكلام جملتان، فحسن فيهما ما لا يحسن في الجملة الواحدة، ألا ترى إلى قوله:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فتكرار الموت في عجز البيت أوسع من تكراره في صدره؛ لأنّا إذا علّلنا هذا إنما نقول: أعاد الظاهر موضع المضمر لِمَا أراد من تعظيم الموت وتهويل أمره، فإذا علّلها مكررة في عجزه علّلناه بهذا، وبأنّ الكلام جملتان. إذا علمت هذا فمثاله في الجملتين كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]»[(١)].

٢. وكلما كان هناك مناسبة ظاهرة للتكرار كالتفخيم والتقرير والتلذُّذ باسم المذكور ونحو ذلك مما يأتي ذِكْره؛ كان الإظهار أحسن. وكلّما اجتمع لذلك

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢/ ٥٠١).

أكثر من غرَض ازداد الإظهار حُسنًا، وكلّما تأكّد غرَضٌ منها وكان شديد الاعتبار؛ كان الإظهار كذلك أحسن.

٣. وكلّما كان التوهُّم في مرجع الضمير محتملًا كان الإظهار مُتعيّنًا.

ويمكن أن نضيف إليها ثلاثةً أخرى:

٤. فكلّما طال الفصل في الكلام المتّصل لفظًا كان الإظهار أحسن.

٥. وكلما كان الجرس الصوتي للمُظهر في التركيب أوقع في السمع كان الإظهار أحسن، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[البلد: ١- ٢]، مع ما فيه من تفخيم البلد، وتفخيم حلول النبي ﷺ به.

ويُلحق بالاعتبار الصوتي أن تكون القرائن أقرب إلى التساوي بالإظهار، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾[الزلزلة: ١- ٢]، فإظهار (الأرض) في الآية الثانية يجعل (زلزلت) بإزاء (أخرجت)، والأرض الأولى بإزاء الثانية، و(زلزالها) بإزاء (أثقالها). ولو أضمر لقال: وأخرجت أثقالها؛ ولترتَّب عليه عدم تساوي القرائن. والله أعلم.

٦. وكلما أمكن الإظهار ثانيةً بلفظٍ مرادِفٍ للمُظهَر أوَّلًا، وكان هذا المرادف يُضيف معنًى مناسبًا للسياق؛ كان الإظهار أجمل، وذلك كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر: ٥- ٦]، والغَرور هو الشيطان، وكان مقتضى الظاهر أن

يُقال: إنه لكم عدوٌّ، فأعاده بلفظ (الشيطان) زيادة في التقرير، ومُبالغة في التحذير، وتأصيلًا للبيان بالإشعار بأنَّه بيانٌ مُبتدَأٌ قَصْدًا، لا مستأنفٌ، فتقدير الاستفهام البياني أسوغُ لو قال: (إنَّه لكم)، وأبعدُ على العبارة المذكورة، وما كان هذا سبيله كان تقرير أهميته أوضح وأبين. والله أعلم.

المطلب الثالث: سر شيوع الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم:

إنّ الموازنة بين هذه المحدّدات الستة المذكورة لاستحسان الإظهار في مقام الإضمار يتجلَّى فيها عملُ البليغ، ولذا قلنا: إن الإظهار في موضع الإضمار قضاء يقضي به المتكلّم، فكلما كان هذا المتكلّم بليغًا كان أحرى أن يُصيب في قضائه، وكلما كان الكلامُ منظورًا إليه كان التعنِّي لذلك مؤكَّدًا، وكان الأمر جديرًا بحسبان المخاطرة.

ولا نشكُّ أنَّ السبب الرئيسَ لشيوع هذا الأسلوب في القرآن بأكثر من شيوعه في كلام العرب أنَّه أسلوبٌ بليغٌ، والباحث عن مكامن البلاغة في الاستعمال القرآني له لا يفتأ يكشف عن الجديد والطريف، فأغراضه متنوعة، وطرائقه متجدّدة، ولا يكاد يخلو موضعٌ منها عن عدَّة أغراضٍ يكتشفها الناظر بجهد يسير، وبعضها يحتاج إلى التأمُّل المليِّ حتى يسبر أغواره ويكشف أسراره. وكثيرًا ما يقع الإظهار في مقام الإضمار مع الالتفات من التكلُّم للغيبة أو الخطاب أو نحو ذلك، فيعظم المحصول البلاغيّ من ذلك، بما يؤكّد أنّ للقرآن القِدْح المعلَّى، واليد الطولى في ميدان البلاغة ومضمارها.

فمن هذه الجهة كانت جمالياته داعية إلى تواتر استعماله وكثرة طرقه في الكلام البليغ، ولكن من جهة أخرى كانت مخاطرة التكرارِ داعية إلى الإحجام عن الاستكثار منه، ولأنَّ القرآن الكريم كلامُ الحكيم الخبير ﷻ الذي أحكم كلّ شيء، وأحاط بكلّ شيء علمًا، فليس ثمَّ مخاطرةٌ يُقرّرها المتكلّم، وإنما هو

ميزان الذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان، ولو كان من عند غيره -سبحانه- لوقع فيه اختلاف كثيرٌ.

والمتأمِّل في القرآن الكريم يجد هذا الأسلوب ساريًا بطول النصّ المبارك وعرضه، لا تكاد تخلو منه صفحة؛ بل ربما وقع منه في الآية الواحدة أكثر من موضع؛ بما يُبين أصالته، وسُموّ بلاغته، وإلّا ما كان القرآن ليُكثر منه.

وأكثر ما يقع هذا الأسلوب في القرآن الكريم في إظهار الأسماء الحسنى في مواضع إضمارها، لا سيما الاسم الأجلّ (الله)، واسم (الربّ) المضاف إلى الاسم الظاهر تارة، وإلى الضمائر تارة أخرى.

ولعلّ السبب في شيوعه في الأسماء الحسنى أنَّه لما كان الموضوع الأكثر حضورًا في القرآن الكريم هو الحديث عن أسماء الله تعالى وصفاته، وكانت أسماؤه أعظم الأسماء وأشرفها وأفخمها، وأقومها بتربية المهابة، وتقوية الرجاء، وأحقّها بالتلذُّذ بتكريرها، والتشرّف بالإضافة إليها كان شيوع هذا الأسلوب فيها جاريًا على مواقع التوقُّع.

وكذا؛ فقد يكون الضمير عائدًا على عَلَمٍ له أسامٍ متعدّدة وصفات متنوّعة، فإذا عُبِّر في موضع الضمير بواحد منها بخصوصه؛ استدعى التصريحُ بهذا الاسم المعيّن أو الوصفِ المخصوصِ معنًى خاصًّا أراده المتكلِّم، وهذا ما لا يستطيع المضمَر أن يستدعيه، ولا أن يثيره. وهذا حاضرٌ بوضوح في عبارات الأسماء

الحسنى، فكلّها أعلامٌ على الذّات الإلهية، وإن كان لكلٍّ منها معنًى خاصٌّ يختلف به عن غيره من الأسماء الحسنى بعض الاختلاف.

فهذه بعض الأسباب التي لعلّها من دواعي شيوع هذا الأسلوب البليغ في القرآن الكريم أكثر منه في سائر الكلام العربي البليغ.

المطلب الرابع: أغراض الإظهار في مقام الإضمار؛ نظرة تاريخية:

وقد تنبَّه العلماءُ إلى هذا الأسلوب القرآني ونوَّهوا به من قديم، فهذا الأخفش (ت ٢١٥هـ) يقف عند قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩]، فيُعلِّق قائلًا: «فثنَّى الاسم وأظهره [يعني لم يقل: (وإليه ترجع الأمور)]، وهذا مثل: (أما زيد فقد ذهب زيد)؛ قال الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيء ... نَغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

فأظهر في موضع الاضمار»[(١)].

يريد: لا أرى الموتَ يسبقه شيءٌ.

---

(١) معاني القرآن، للأخفش، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ= ١٩٩٠م، (١/ ٢٢٩). ورأى الطبري أنَّ الاستشهاد بالبيت لما في الآية غير دقيق؛ لأنَّ لفظ الموت الثاني في البيت واقعٌ في الجملة نفسها التي وقع فيها لفظ الموت الأول، وأمّا الآية فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ خبر ليس من قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ في شيء، وذلك أن كلّ واحدة من القصتين مفارق معناها معنى الأخرى، مكتفية كل واحدة منهما بنفسها غير محتاجة إلى الأخرى. انظر: جامع البيان (٥/ ٦٧٠).
وإن سُلِّم بأنَّ الأمر كذلك في هذا الموضع من سورة آل عمران، فليس كذلك في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولا في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولا في قوله تعالى: ﴿جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، وهذا كثير جدًّا كما سيأتي في ثنايا البحث.

وقال أبو إسحاق الزجّاج (ت ٣١١هـ) معلّقًا على الآية نفسها: «ولو كانت: (وإليه تُرْجَعُ الأمور) لكان حسنًا، ولكن إعادة اسم الله أفخم وأوكد، والعرب إذا جرى ذكر شيء مُفخَّم أعادوا لفظه مُظهَرًا غير مضمَر»[(١)].

وأكثر أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) في بيان هذا الأسلوب بالموازنة بمن قبله من علماء القرآن، فأجاز أن يكون الموصول من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، مبتدأ، ويكون خبره: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فإنّ معناه: (فلا تجعلوا له)، وأُعيد الاسم على التفخيم والتعظيم، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١][(٢)]، فأظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (يحببكم ويغفر).

وعند قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ذهب إلى أنَّ في تكرير الاسم الأجلّ معنى التعظيم[(٣)].

وكذا عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] بيَّن أنَّ المعنى: (وهو عليم بما يفعلون)، ولكن إظهار المضمر في مثله أفخم[(٤)].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجّاج (١/ ٤٥٥)، وانظر: معاني القرآن، للنحّاس (١/ ٣٨٤).

(٢) القطع والائتناف، للنحاس، ص٤٣.

(٣) القطع والائتناف، للنحاس، ص٢١٢.

(٤) القطع والائتناف، للنحاس، ص٤٧٢.

وعند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[الطلاق: ١٢]، بَيَّن أنَّه جاز إظهار اسم الجلالة فلم يقل: (وأنَّه قد أحاط)؛ لأنَّ الإظهار أفخم[(١)].

وعند قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[الإخلاص: ١- ٢]، أجاب عن السؤال عن معنى تكرير الجلالة بأنَّ فيه التعظيم، وهو جارٍ على كلام العرب، ومثله في القرآن قوله الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[المزمل: ٢٠].

فهذه بعض المواضع التي لفَت فيها أبو جعفر النحاس النَّظر إلى أسلوب الإظهار في مقام الإضمار، وجعل غرضه التفخيم والتعظيم، وبَيَّن جريانه على أسلوب العرب وطريقتهم في بليغ الكلام.

ولعلّ مكيّ بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) مِن أوَّل مَن نوَّه بأسلوب الإظهار في مقام الإضمار من المفسّرين، ومن ذلك توجيهه لقول الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، بأنَّ الاسم

(١) إعراب القرآن، للنحاس (٤/ ٣٠١).

الأجلَّ قد أُعيد لأنه أفخم، ولأنه لا يقع فيه إشكال، إِذْ هذا الاسم إنما هو للربِّ لا يشركه فيه أحد[١].

ويلاحظ أنَّ مكيًّا -وإن انتبه لهذا الأسلوب- لم يتوسّع في التنويه بمواضعه، ولم يخرج في عدِّ أغراضه عمَّن سبقه، إِذْ غرضه عندهم التفخيم والتعظيم، لا يزيدون على ذلك.

ثم زاد عليه الزمخشريّ (ت ٥٢٨هـ) مواضع، وأضاف له أغراضًا حملها عنه مَن جاء بعده، فقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، كان مقتضى الظاهر أن يقال فيه: (فلعنة الله عليهم)، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنَّ اللعنة لحقتهم لكفرهم[٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٠]، لم يقل: (ولا تتبع أهواءهم) كما هو مقتضى الظاهر؛ للدلالة على أنَّ مَن كذب بآيات الله وعدل به غيره؛ فهو متّبع للهوى لا غير؛ لأنه لو اتّبع الدليل لم يكن إلا مصدقًا بالآيات موحِّدًا لله تعالى[٣].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي (٢/ ١٠٩٣)، وانظر: (٢/ ٩٧٧)، (٤/ ٣٠٠٤)، (٨/ ٥١٢٨)، ومشكل إعراب القرآن، له (١/ ٣٩٠).

(٢) الكشاف، للزمخشري (١/ ١٦٤- ١٦٥).

(٣) الكشاف، للزمخشري (٢/ ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾[الفرقان: ٧-٨]، لم يقل: (وقالوا إنْ تتّبِعُون) مع أنَّه مقتضى الظاهر؛ ليُسجّل عليهم الظلم فيما قالوا[(١)].

وسيأتي بعد قليل ذِكْر أغراض أخرى أبدعها الزمخشري.

ومنه تلقَّف الرازي (ت ٦٠٦هـ) معظم ما قال، وزاد عليه مواضع[(٢)]، وإن لم يخرج في الجملة عن الأغراض التي يذكرها الزمخشري.

ثم شاع بعد ذلك في تناول المفسِّرين والمعربين، فأكثرَ منه العكبري (ت ٦١٦هـ)، وعلى خطاه المنتجب الهمذاني (ت ٦٤٣هـ)، والبيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، والنَّسَفي (ت ٧١٠)، وابن جزيّ (ت ٧٤١هـ)، والطِّيبي (ت ٧٤٣هـ)، وأبو حيان (ت ٧٤٥هـ)، والسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، ونظام الدين النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، وبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، والخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ)، وأبو السعود العمادي (ت ٩٨٢هـ)، وغيرهم ممن جاء بعدهم وتأثّر بهم أو ببعضهم.

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٢٦٥).

(٢) انظر على سبيل المثال: التفسير الكبير، للرازي (٢٢/ ١٢٠، ١٤٨)، (٢٣/ ٢٤١)، (٢٧/ ٦٥٤)، (٣٠/ ٦٢٠).

وعلى تأثُّر اللاحقين بالسابقين، فإنَّ لأبي السعود العمادي اعتناءً خاصًّا بهذا الأسلوب، واهتمامًا بتتبّع مواضعه في القرآن الكريم، وتجلية أغراضه، مع ابتكار بعضها؛ كقصد تهويل الخطب والاستفظاع، فكان تفسيره ميدانًا رحبًا لمن أراد أن يتنسَّم عبق هذا الأسلوب.

وكذا الطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) ممن له فيه إضافاتٌ تُذْكَر، وإشارات تُنْشَر، واستدراكاتٌ تُنصَر.

غير أنَّه يحسن بنا في هذا المقام أن نتوقف عند بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) حيث ذكر الإظهار في مقام الإضمار تحت النوع السادس والأربعين من أنواع علوم القرآن، وهو في أساليب القرآن وفنونه البليغة. ومن الإضافات القيمة التي أضافها الزركشي وتأثّر بها كلّ من جاء بعده أنْ توسَّع في ذكر أسباب الإظهار في مقام الإضمار وأغراضه، فعدَّ منها سبعة عشر غرضًا، ونحن نسوقها مُلخَّصة مُحرَّرة، مع التعليق عليها ببعض الفوائد، محاولين نسبة كلّ غرض إلى أوَّل مَن قال به ما أمكن ذلك:

الأول: قصد التعظيم(١)، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ

(١) وهو أقدم الأغراض ذكرًا، وعليه اقتصر المتكلِّمون في معاني القرآن والمعربون والمفسِّرون وقتًا طويلًا. انظر الاستعراض المتقدّم قريبًا لظهور المفهوم عند الأخفش والزجّاج والنحّاس وغيرهم.
=

﴿ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨]، كان القياس: (إنه كان مشهودًا)، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣]؛ كان القياس: (ما هي وما أدراك ما هي) لولا ما أُريد بالإظهار من التعظيم والتفخيم.

الثاني: قصد الإهانة والتحقير، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]، ولم يقل: (ومَن يتبعها)، أو: (ومن يتّبع خطواته)[1].

=

هذا، وقد فرّق الزركشي بين التعظيم وتعظيم الأمر، فعدَّ تعظيم الأمر الغرض الثامن كما سيأتي.

(١) لعلّ الأشبه في هذا المثال أنَّ غرض الإظهار المبالغة في التحذير من اتباع خطوات الشيطان لخفائها، وسهولة وقوع المرء فيها دون أن يشعر، فبُولغ في التحذير منها بالإظهار في مقام الإضمار. فهذا السياق لا يُفهم منه التحقير بحالٍ. والله أعلم.

ولعلَّ من الأمثلة الصالحة لهذا الغرض قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، حيث وضع الاسم الظاهر (الكافرون) موضع ضميرهم، فلم يقل: (وقالوا هذا ساحر كذاب)، إهانةً وذمًّا لهم بالكفر، وإشعارًا لِعلَّة تجاسرهم على هذا القول، وهو الكُفر. وانظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٤).

ويمكن أن يُلحق بهذا الغرضِ غرضُ التبكيت، ومثاله قول الله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فوضع الاسم الموصول موضع الضمير، ولم يقل: (يقولون قد جاءت)؛ ليتوصَّل بالوصف بالموصول وصِلته إلى تبكيتهم على نسيانهم إيّاه في الدنيا، فالصيفَ ضيعتِ اللبن! والله أعلم.

الثالث: الاستلذاذ بذكره[(١)]، كما في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠][(٢)].

الرابع: زيادة التقرير[(٣)]، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١- ٢]، ودلَّل على إرادة التقرير سببُ نزولها، أنَّ قريشًا قالت: يا

---

(١) أوّل مَن ذكَر هذا الغرض فيما وقفتُ عليه ابن السيد البطليوسي، انظر: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٣/ ١٩٥). وسيأتي إيراده في محله من البحث.

(٢) **قلتُ**: وقصد التلذُّذ بذِكْر المحبوب قصد صحيح صريح للإظهار موضع الإضمار، وإن كانت الأمثلة التي ذكرها الإمام الزركشي ليست قريبة المأخذ، وقد يكون هناك أمثل منها وأدلّ، وسيأتي في موضعه بإذن الله.

(٣) وقع في جميع الطبعات التي بين يديَّ للبرهان: «التقدير»، وتأثَّر به كثيرٌ من المعاصرين الناقلين عن الزركشي، والصواب التقرير بالراء، وهو ما يُعبِّر عنه البلاغيون بزيادة التمكين أو زيادة التمكُّن. قال السكّاكي في شرح هذا الغرض: «وذلك أنَّ السامع متى لم يفهم مِن الضمير معنًى بقي منتظرًا لعُقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع بعده فضلَ تمكُّن في ذهنه. وهو السِّر في التزام تقديمه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾، كما يُوضع المظهر موضع المضمر إذا أريد تمكين نفسه زيادة تمكين؛ كقوله: إن تسألوا الحقّ نُعطِ الحقّ سائله، وقوله عز قائلًا: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي، ص١٩٨. ويؤكّد أن هذا مراد الزركشي وأنه تصحَّف على الناسخين أو المحقّقين أنَّه قال قبل بداية هذا الموضع بقليل: «القسم التاسع: وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التقرير»، وكذا هو في الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٣/ ٢٤٤)، ومعترك الأقران، له (١/ ٢٧٤)، والزيادة والإحسان في علوم القرآن، لابن عقيلة المكي (٦/ ١٦٣).

محمد؛ صِف لنا ربَّك الذي تدعونا إليه. فنزلت السورة، والمعنى: أنّ الذي سألتموني وصفه هو الله أحد، ثم لما أُريد تقرير كونه الله أُعيد بلفظ الظاهر دون ضميره.

الخامس: إزالة اللبس(١)، حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾[آل عمران: ٢٦]، لو قال: (تؤتيه) لأوهم أنه الأول، وكقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨]، ولو قال: (إنَّه كان مشهودًا)؛ لانصرف الذِّهن إلى الفجر لا إلى قرآنه.

السادس: تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع(٢) بذكر الاسم المقتضي لذلك؛ كما يقول الخليفة لمن يأمره بأمرٍ: «أمير المؤمنين يأمرك بكذا»

---

(١) وهذا الغرض من أقدم الأغراض التي ذكرها النحاة والمفسّرون لوضع الظاهر موضع المضمر، فعند قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾؛ قال الزجاج [معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٢٢]: «هذه الجملة خبر الجزاء، والعائد عليه من الجملة (جَزَاؤُهُ) الذي بعد قوله (فهو)، كأنَّه قيل: قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو هو، أيْ فهو الجزاء، ولكن الإظهار كان أحسن ههنا؛ لئلا يقع في الكلام لبس، ولئلا يتوهم أنّ (هو) إذا عادت ثانية فليست براجعة على الجزاء». على أنَّه استشهد في هذا الموضع بالبيت المشهور: لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيءٌ، وهو استشهاد غير دقيق؛ لأنَّ الإظهار في البيت للتعظيم والتفخيم؛ لا لرفع اللبس. والله أعلم.

(٢) أوَّل مَن ذكَر هذا الغَرَض والذي بعده في أغراض الإظهار في مقام الإضمار فيما وقفتُ عليه هو السكاكي في مفتاح العلوم (ص١٩٨)، حيث قال: «وتُترك الحكاية على المظهر إذا تعلق به غرض فعل =

مكان: «أنا آمرك بكذا». ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩]، ولم يقل: (لخزنتها)؛ لإدخال الروعة بذِكْر جهنم بعد ذِكْر النار.

السابع: تقوية داعي المأمور، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولم يقل: (فتوكَّل عليَّ)، ولم يقل: (إنِّي أحب)، وذلك لتقوية داعية المأمور بالتوكّل، بالتصريح باسم المتوكَّل عليه ﷻ.

الثامن: تعظيم الأمر(١)، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾

=

الخلفاء، حيث يقولون: (أمير المؤمنين يرسم لك) مكان: (أنا أرسم)، وهو إدخال الروعة في ضمير السامع وتربية المهابة، أو تقوية داعي المأمور».

(١) ذكر الزركشي التعظيم أول أغراض الإظهار في مقام الإضمار، ثم ذكر هنا تعظيم الأمر، والظاهر أنَّه يقصد بالتعظيم تعظيم المظهَر نفسه، كتعظيم الله ﷻ، وتعظيم قرآن الفجر، وتعظيم الحاقة في الأمثلة المذكورة في الغرض الأول، أمّا تعظيم الأمر، فيَقصد به تعظيم الأمر المتعلِّق بالمظهَر، فلما أعاد ذكر الخلق في آية سورة العنكبوت أراد تعظيم بداية الخلق، ولما أعاد ذكر الإنسان في آية سورة الإنسان أراد تعظيم خلق الإنسان، والعظمة في الأمرين عائدة على الله الخالق ﷻ. ولعلَّ الأوفق عدّ الغرضين غرضًا واحدًا، مع توضيح مظهر العظمة ومعادها. وسيأتي مزيد توضيح لذلك في محله من البحث بإذن الله.

[العنكبوت: ١٩- ٢٠]، وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[الإنسان: ١- ٢]، ولم يقل: (خلقناه) للتنبيه على عظم خلقه للإنسان.

التاسع: أن يقصد التوصل بالاسم المُظهَر إلى الوصف(١)، كقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بعد قوله في صدر الآية: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولم يقل: (فآمنوا بالله وبي)؛ ليتمكن من إجراء الصفات التي ذكرها للنبي الأمّي الذي يؤمن بالله، فإنه لو قال: (وبي) لم يتأتَّ ذلك؛ لأنّ الضمير لا يوصف، ليعلم أنَّ الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو مَن وُصف بهذه الصفات كائنًا من كان، أنا أو غيري؛ إعطاءً للنَّصَفَةِ، وبُعدًا عن التعصب لنفسه.

العاشر: التنبيه على عِلَّة الحكم(٢)، كقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩]، ولم يقل: (فأنزلنا عليهم)؛ ليُبيِّن علّة إنزال العذاب عليهم، وهي الظلم.

---

(١) ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٥٢]، قال البيضاوي: «أي (مَن أضلُّ منكم)، فوضع الموصول موضع الضمير؛ شرحًا لحالهم، وتعليلًا لمزيد ضلالهم»، انظر: أنوار التنزيل (٥/ ٧٥).

(٢) **قلتُ**: ولعلَّ الزمخشريَّ هو أول مَن ذكر هذا الغرض في أغراض الإظهار في مقام الإضمار، إِذْ أكثر مِن ذكره في كشّافه. والله أعلم. وانظر على سبيل المثال: الكشاف (٢/ ٥٠٢)، (٤/ ٢٧١). وقد أشار الزركشي إلى استفادته بعض المواضع التي مثَّل بها لهذا الغرض من الزمخشري.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[الأعراف: ١٧٠]، ولم يقل: (أجرهم)؛ تنبيهًا على أنّ صلاحهم علة لنجاتهم.

الحادي عشر: قصد العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾[الشورى: ٤٨]، ولم يقل: (فإنه) مبالغة في إثبات أنَّ هذا الجنس شأنه كفران النعم.

الثاني عشر: قصد الخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ولم يقل: (لك)؛ لأنه لو أتى بالضمير لأخذ جوازه لغيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾[الأحزاب: ٥٠]؛ فعدل عنه إلى الظاهر للتنبيه على الخصوصية، وأنه ليس لغيره ذلك.

الثالث عشر: مراعاة التجنيس، ومنه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس: ١]؛ السورة[(١)].

الرابع عشر: أن يتحمل ضميرًا لا بد منه، كقوله تعالى: ﴿أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾[الكهف: ٧٧]، لأنه لو قال: (استطعماهم) لعاد الضمير على

(١) عزاه الزركشي للشيخ عز الدين ابن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

جماعة واحدة من أهل القرية، وهم الَّذِين أتيَا عليهم أوّلًا، وإنما أراد العموم؛ أي استطعما جميع أهلها[(١)].

---

(١) ولابن الحاجب في أماليه (١/ ٢١٧) شرحٌ بديع لتعَيُّن ذكر الاسم في: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ ظاهرًا، دون: (استطعماهم)، ووقع بنحوه مع زيادة تحريرٍ وفوائد لتقي الدين السُّبكي في جوابه البديع عن سؤالٍ منظومٍ لصلاح الدين الصفدي. انظر: فتاوى السُّبكي (١/ ٦٥- ٦٨).

وهذا السؤال الذي نظمه الصفدي استفتى فيه اثنين من العلماء سوى تقي الدين السُّبكي، ووقع في جوابهم آدابٌ وفوائد جَمَّةٌ يمكن إفرادها في جزء لطيف، فقد سأل عنه الشيخَ الإمام عليّ بن الحسين بن قاسم الموصلي، (انظر: أعيان العصر وأعوان النصر، للصفدي ٣/ ٣٣٧- ٣٤٣)، فأجابه الشيخ نظمًا مختصرًا، ونثرًا مبسوطًا، ومن لطيف ما وقع في نظمه من التوجيه:

«فلا تمتحن بالنَّظم مِن بعدُ عالـمًا فليس لكـلِّ بـالقريـض يـدانِ».

وفيه فوائدُ جليلةٌ، وكذا في بعضه نَظَرٌ.

وسأل عنه الصفديُّ العلَّامةَ نجم الدين عليّ بن داود القحفازي [أعيان العصر ٣/ ٣٦٨- ٣٧٠، والوافي بالوفيات ٢١/ ٦٦- ٦٧]، ومن بديع ما جاء في جوابه: «وقصد المتكلم هنا الإخبار عن الذين طلب منهم الإطعام أنهم أهل القرية؛ لأنَّ مَن غَشيه الضيفُ في منزله ولم يعتذر بعذر عن إكرامه؛ بل قابله بالمنع مع ظهور حاجته التي أوجبت له أن يسأل منه ذلك؛ لأن المسألة آخر أسباب الكسب= يعلم بذلك أن الحامل له على الامتناع من إضافته لؤم الطباع واتباع مذموم البخل والشحّ المطاع... ومَن كانت هذه سجيته كان حريًّا بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بالإحسان إليه، فلما رأى موسى -صلوات الله عليه- إصلاح الخضر عليه السلام لجدارٍ مُشرفٍ على السقوط في القرية التي هؤلاء أهلها من غير طلب أجر ذلك منهم، مع الحاجة إلى ذلك؛ عجب من ذلك، وأنكره حتى كأنه نسي ما قدَّمه مِن وعدِه إياه بالصبر، وبعدم المصاحبة إن سأله عن شيء بعد ذلك، مع حرصه على صحبته والتعلّم منه، فكان في إعادة لفظ الأهل في الآية الكريمة إقامةٌ لعذر موسى عليه السلام في الاعتراض في هذه الحالة؛ لأنها حالة لا يصبر عن الاعتراض فيها؛ لأنّ حالهم يقتضي بذل الأجر في إصلاح أمر دنياوي لحرصهم =

الخامس عشر: كونه أهم من الضمير، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢][(١)].

=

وشحّهم، فتركُ طلبِ الأجرة على إصلاح ذلك مع الضرورة والحاجة وقع إحسانًا إلى أهلها الذين قابلوهما بالمنع عن الضيافة، فكانت البلاغة متعلقة بلفظ الأهل التي هي الحاملة على الاعتراض ظاهرًا، فاعتلَّ الخضر عليه السلام بأن الجدار إنما كان ليتيمَين من أهلها، واليتيم محل المرحمة، وليس محلًّا لأن يطلب منه أجرة، إمّا لعجزه، أو لفقره وهو الظاهر، أو لأنه لا يجوز تصرّفه في ماله، ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، ولم يكن لأهلها الذين أبَوا أن يضيفوهما».

(١) وضع الظاهر موضع المضمر ههنا؛ لأنّه يجوز على كلّ واحدة منهما النسيان، فليست لإحداهما في ذلك ميزة على الثانية، وإن كانت الشهادة ذات أجزاء فيصحّ أن تعتقبا على النسيان والتذكير، وهذا الشأن في عامة النساء؛ حتى لا يُفهم وجوب أن تكون واحدة منهما أذكرَ من الأخرى. قال أبو حيّان: «ولـمَّا أبهم الفاعل في: ﴿أَن تَضِلَّ﴾ بقوله: ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾؛ أبهم الفاعل في: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ بقوله: ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾، إِذْ كل من المرأتين يجوز عليها الضلال والإذكار، فلم يرد بإحداهما معينة. والمعنى: إن ضلّت هذه أذكرتها هذه، وإن ضلّت هذه أذكرتها هذه، فدخل الكلام معنى العموم، وكأنه قيل: مَن ضلَّت منهما أذكرتها الأخرى». [البحر المحيط ٢/ ٧٣٤].

قلتُ: ولمّا كان الاسم الظاهر قد أدَّى معنًى لا يؤديه الضمير جاز ألّا يُعَدَّ هذا الموضع من مواضع الإظهار موضع الإضمار؛ لأنّ الضمير في الحقيقة لا ينوب عن الاسم الظاهر في هذا المعنى. ولذا قال العكبري (التبيان في إعراب القرآن ١/ ٢٣٠): «فإن قيل: لِمَ لمْ يَقُل فتذكِّرها الأخرى؟ قيل: فيه وجهان؛ أحدهما: أنه أعاد الظاهر ليدلَّ على الإيهام في الذِّكر والنسيان، ولو أضمر لتعيّن عوده إلى المذكور، والثاني: أنه وضع الظاهر موضع المضمر تقديره: فتذكرها، وهذا يدلّ على أن إحداهما الثانية مفعول مقدَّم، ولا يجوز أن يكون فاعلًا في هذا الوجه؛ لأنَّ الضمير هو المظهر بعينه، والمظهر الأول فاعل تضلّ، فلو جعل الضمير لذلك المظهر لكانت الناسية هي المذكرة وذا محال». والتفريق بين

=

السادس عشر: كون ما يصلح للعَوْد لم يُسَقِ الكلامُ له[1]، كقوله تعالى: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾[الأنعام: ١٢٤].

=

الوجهين يحتاج لتأمّل؛ ولذا قال السمين الحلبي: «وقد يتبادَرُ إلى الذِّهنِ أنَّ الوجهينِ راجعانِ لوجهٍ واحدٍ قبلَ التأمُّلِ؛ لأنَّ قولَه: «أعادَ الظاهرَ» قريبٌ من قوله: «وَضَعَ الظاهرَ مَوْضِعَ المضمرِ».

(١) في النسخ المطبوعة التي بين يديَّ للبرهان: «كون ما يصلح للعَوْد (ولم) يُسَق الكلام له» بإثبات واو قبل (لم)، ولا أدري ما وجهها. فلعلّ الصواب ما أثبتناه، والواو مُقحمة سهوًا من المؤلِّف أو النسّاخ أو المحقّقين. والله أعلم. ومعنى الكلام أنَّ الاسم الظاهر المذكور ثانية انفصل بعلَّة عن الاسم الظاهر المذكور أوَّلًا، فقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ حكاية لكلام الكفّار المكذبين بآيات الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ كلام مستأنف من مقول الله تعالى في الردّ عليهم، قال السيرافي (شرح كتاب سيبويه ١/ ٣٣٥): «فأعاد الظاهر؛ لأن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ جملة ابتداء وخبر، وقد مرّت الجملة الأولى». فانفصلت الجملتان من هذه الحيثية، فالأولى سيقت لحكاية كلام الكفار، والثانية سيقت في الردّ عليهم، وقائل هذه في الحقيقة غير قائل تلك؛ ولذا أعاد. وهذا مراد الزركشي. والله أعلم. ويؤيده بيت الشِّعر الذي مثَّل به الزركشي لهذا الغرض:

تبكي على زيد ولا زيد مثله بريء من الحمي سليم الجوانح

فزيد الثاني ليس هو الأول، والكلام لم يُسَقْ له؛ ولذا أظهره.

ومع وضوح قصد الزركشي وتعيُّن أن الواو في (ولم) زيادة سهوٍ؛ فإنَّ البيت يختلف عن الآية بعض الاختلاف؛ ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى واحدٌ ليس له سميٌّ سواء كان ذكره جائيًا في الحكاية أو في الردّ عليها، وليس كذلك (زيد) في البيت الممثل به. فتأمل! والله أعلم.

هذا، وفي الآية الكريمة من البديع ما يُذكر تحت مصطلح (الترديد)، وهو أن تُورِد اللفظة لمعنى من المعاني، ثم تُردِّدها بعينها، وتُعلِّق بها معنًى آخر. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾ [الروم: ٦- ٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ

=

السابع عشر: الإشارة إلى عدم دخول الجملة في حكم الأولى، كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، فإن قوله: (ويمحُ) استئنافٌ، وليس على الجواب؛ لأنّ المعلّق على الشرط عُدِمَ قبل وجوده، وهذا صحيح في: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[الشورى: ٢٤]، وليس صحيحًا في: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾[الشورى: ٢٤]؛ لأنّ محو الباطل ثابت؛ فلذلك أُعيد الظاهر.

وقد ذَكَر الزركشي ما يصحُّ أن يُعَدَّ غرضًا للإظهار في مقام الإضمار وإن لم يُصنّفه مع الأغراض السبعة عشر المتقدمة، وهو تعمُّد الإظهار لقطع التشاغل بمرجع الضمير، وذلك قوله: «واعلم أنه متى طال الكلام حسن إيقاع الظاهر موضع المضمر كي لا يبقى الذِّهن متشاغلًا بسبب ما يعود عليه اللفظ، فيفوته ما شرع فيه، كما إذا كان ذلك في ابتداء آية أخرى»[(١)].

ومن الأمثلة الصالحة التي ذكرها لذلك قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن

=

ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ﴾ [التوبة: ١٠٨]، انظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي (٣/ ٢٠٠)، والبرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٠١).

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٢/ ٥٠٢).

﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦- ٣٧]، فأعاد الاسم الأجلّ ظاهرًا؛ في الآية الثانية، ولم يقل: (عن ذكره) لطول الفصل.

ومثَّل له السيوطي[(١)] مثلًا أوضح بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فأعاد ذكر إبراهيم عليه السلام ظاهرًا، مع جواز إضماره، ولكن الإظهار أحسن لطول الفصل، فقد تقدَّم الاسم الظاهر قبل عدة آيات في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ثم أُعيد مرارًا مضمرًا في الآيات اللاحقة.

ومما يلفت النَّظر أنَّ جُلَّ هذه الأغراض قد نشأ في رَحِم الدرس التفسيريّ التطبيقيّ بعيدًا عن تنظيرات البلاغيين التي لم تستطع مواكبة هذه الثروة الطائلة؛ بل ما زالت كتب البلاغة المدرسية تقتصر في عدّ أغراضه على ما لا يزيد على أصابع اليد الواحدة، وتقتصر على بعض الأمثلة المكرّرة المعادة، ولم تستفد كبير استفادةٍ مما سطره المفسّرون. والذي يستدرُّ العَجَب أنَّ بعض العلماء المُصنِّفين في الفنَّيْنِ لا يَبدُو أنهم استفادوا كثيرًا في تنظيراتهم البلاغية مما سطروه في تفسيراتهم[(٢)].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٣/ ٢٤٩).

(٢) وقد سجَّل الأستاذ البلاغي الكبير الدكتور/ محمد أمين الخضري رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحوًا من هذه الملحوظة في بعض مصنّفاته (انظر: الواو ومواقعها في النظم القرآني ص١٠- ١١)، حيث قال: «وقد أدهشني أنَّ روّاد =

أغراض الإظهار في مقام الإضمار الأخرى التي ذكرها العلماء ولم يذكرها الزركشي:

هذا، وهناك أغراض أخرى نصَّ عليها مَنْ تقدَّموا الزركشي، ولكنه لم يُوفَّق إلى استخراجها من كلامهم، فمن ذلك:

الأول: الاستعطاف:

نبَّه عليه السكّاكي، إِذْ عدَّ من الأغراض التي يعبَّر فيها بالاسم الظاهر في موضع الإضمار «فعل المستعطف، حيث يقول: (أسيرك يتضرّع إليك) مكان: (أنا أتضرع إليك)؛ ليكون أدخل في الاستعطاف. وعليه قوله: إلهي عبدك العاصي أتاكَ»[1].

=

البلاغة وأعلام البيان ممن جمعوا بين التأليف في البلاغة والكتابة في التفسير؛ قد أثبتوا في تفاسيرهم وحواشيهم عليها الكثير من المباحث الشائقة والممتعة في بلاغة العطف بالواو، دون أن تجد لها أثرًا في مصنفاتهم البلاغية... وليس لذلك من سببٍ إلا تحكُّم المناهج البلاغية والصرامة في تطبيقها، **وغَيْبة القرآن عن توجيه هذه الدراسة».**

فلعل هذا يوقفنا على ضرورة أن يكون القرآن الكريم المصدر الرئيس لاستقراء القوانين البلاغية، والميدان الرحب لممارسة تطبيقاتها تمثيلًا وتدريسًا، فإذا تذرَّع الدارس بالذائقة السليمة، وسلمت له الملكة البلاغية؛ عاد موازنًا بين القرآن وغيره من سائر النصوص الموصوفة بالبلاغة، وعندها يستطيع بيُسْرٍ أن يستبين -ومن ثمَّ يُبيّن للناس- فرق ما بين القرآن وغيره، وما الذي تميَّز به القرآن وعجز عنه العرب.

(١) مفتاح العلوم، للسكاكي، ص١٩٩.

الثاني: تحقيق الوصف:

نبَّه لمعناه الزمخشري وتبعه كثيرٌ من العلماء.

ومثال ذلك: ما ذكره عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، قال: «أي: ولئن صبرتم لَصبركم خير لكم، فوضَع (الصابرين) موضع الضمير؛ ثناءً من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة»[(١)].

وعند قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، قال: «بمعنى: وما كنت مُتخذَهم عَضُدًا؛ أي: أعوانًا، فوضع (المضلين) موضع الضمير؛ ذمًّا لهم بالإضلال»[(٢)].

وعند قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]، قال: «﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد: وإنّ هؤلاء المنافقين والمشركين. وأصله: (وإنهم)، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاءً عليهم بالظُّلم»[(٣)].

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٢/ ٦٤٥).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٢/ ٧٢٨).

(٣) الكشاف، للزمخشري (٣/ ١٦٦).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، فيه وضْعٌ للظاهر موضع الضمير، فلم يقل: (فقالوا هذا شيء عجيب)؛ للشهادة على أنهم في قولهم هذا مُقدِمون على الكفر العظيم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، من باب وضْعِ الظاهر موضع الضمير العائد إلى (مَن)؛ أي: فإنهم الغالبون، لكن أظهرهم بوصفهم حزب الله تعالى؛ تعظيمًا لهم، وإثباتًا لغلبتهم بالطريق البرهاني، كأنه قيل: ومن يتولَّ هؤلاء فإنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون[(٢)].

وقد يفيد الإظهار موضع الإضمار لا مجرّد تحقيق الوصف، وإنما تحقيق مستتبعاته، فالوصف لا يُراد بذاته بقدر ما يُراد لازمه. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام: ٢٥]، دائمًا ما كنتُ أطربُ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في موضعها هذا دون أن أتعنَّى تحليل سبب ذلك، حتى درستُ هذا الأسلوبَ البديعَ فرأيتُ فيها إظهارًا بديعًا في موضع الإضمار، إذْ كان مقتضى الظاهر أن يقال: (يجادلونك يقولون)، ولكنه عدل عن ذلك إلى الإظهار

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٣٨٠).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٥٣).

بالموصول والصِّلة؛ تحقيقًا لكفر المجادلين، وبيانًا لعلَّة قولهم، وهي الكفر، والألطف من ذلك ما يستتبعه وصْفُهم بالكفر، ألا وهو كذبهم فيما يقولون. فأبطله قبل أن يحكيه بأنْ أظهر في موضع الإضمار. فتأمل!

ثم رأيتُ قريبًا منه فيما ذكره الطِّيبي؛ قال: «فوضَع (الذين كفروا) موضع الضمير؛ ليشعر بأنّ مجيئهم على تلك الحالة كفر وعناد، وقولهم كذب بحت»[(١)].

الثالث: التقبيح والتفظيع وتهويل الخطب:

ذكر الزمخشري عند قول الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]، فيه إظهار في موضع الإضمار، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (فلا يُجزَون إلا)، ولكن وضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير؛ لأنّ في إسناد عمل السيئة إليهم مكررًا فضلَ تهجينٍ لحالهم، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين[(٢)].

وفي تعليقه على قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: ٨٩]، قال:

(١) فتوح الغيب، للطيبي (٦/ ٥٨).

(٢) الكشاف، الزمخشري (٣/ ٤٣٦).

«تقديره: توعدون من آمن به، وتصدُّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو (سبيل الله) موضع الضمير؛ زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدّون عنه»[(١)].

ثم نضجت الإشارة إلى هذا الغرض وتقرَّرت على يدي أبي السعود العمادي، فمن ذلك ما أشار إليه عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨]، قال: «وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب»[(٢)].

الرابع: تقوية استقلال الجمل:

ذكره أبو السعود العمادي عند قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[النساء: ٤٧]، ووضعُ الاسمِ الجليلِ موضعَ الضميرِ بطريق الالتفاتِ؛ لتربيةِ المهابةِ، وتعليلِ الحكمِ، وتقوية ما في الاعتراض من الاستقلال[(٣)].

ولابن عاشور اعتناء بإبراز هذا الغرض.

---

(١) الكشاف، للزمخشري (٢/ ١٢٨).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٦٣).

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٨٧).

الخامس: تسيير الجمل مجرى المثل:

اعتنى بهذا الغرض ابن عاشور، فقرّره أحسن تقرير عند قول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨]، فقال: «وأظهرَ لفظ الهدى في قوله: (هداي) وهو عين الهدى في قوله: (مِنِّي هُدًى) فكان المقام للضمير الرابط للشرطية الثانية بالأولى، لكنه أظهر اهتمامًا بالهدى ليزيد رسوخًا في أذهان المخاطبين على حد قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥- ١٦]، ولتكون هاته الجملة مستقلة بنفسها لا تشتمل على عائد يحتاج إلى ذِكر معاد؛ حتى يتأتى تسييرها مسير المثل أو النصيحة فتُلحظ فتُحفظ وتتذكرها النفوس لتهذب وترتاض، كما أظهر في قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] لتسير هذه الجملة الأخيرة مسير المثل. ومنه قول بشار:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	مكان الخوافي قوة للقوادم
وأدن إلى الشورى المسدد رأيه	ولا تُشهد الشورى امرَأً غير كاتم

فكرّر الشورى ثلاث مرات في البيتين الثاني والثالث؛ ليكون كلُّ نصف سائرًا مسير المثل، وبهذا يظهر وجه تعريف الهدى الثاني بالإضافة لضمير الجلالة دون (الـ) مع أنها الأصل في وضع الظاهر موضع الضمير الواقع معادًا؛ لئلا يفوت هاته الجملةَ المستقلةَ شيءٌ تضمّنته الجملة الأولى، إذ الجملة

الأولى تضمّنت وصف الهدى بأنه آتٍ من الله، والإضافة في الجملة الثانية تفيد هذا المفاد»[(١)].

ثم نبَّه ابن عاشور إلى كثير من مواضعه في ثنايا تفسيره، وسيأتي جانبٌ منها في موضعه من البحث بإذن الله.

فبلغت العدّة اثنين وعشرين غرضًا للإظهار في مقام الإضمار ذكرها العلماء، لا على سبيل الحصر، وإن كانت تنتظم معظم ما يُمكن أن يُعلَّل به هذا الأسلوب البليغ.

وسوف يضيف هذا البحث -بإذن الله- بعض الأغراض الأخرى المحتملة لتفسير إظهار أسماء الله الحسنى في مواضع الإضمار. وبالله التوفيق.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١/ ٤٤٢).

الأغراض الصالحة لإظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار:

إنَّ لأسماء الله تعالى خصوصيةً ليست لغيرها، وإذا كان الواجب على المتدبِّر لكتاب الله تعالى أن يجتهد غاية الاجتهاد في تأمّله، ثم يتمهَّل في قبول ما يقع له من ثمرات تأمّله؛ حتى يطمئن إلى جوازه، فإنَّ ما كان من ذلك متعلِّقًا بأسماء الله الحسنى أحقُّ بالتدقيق والتحقيق.

وعليه؛ يمكن تقسيم الأغراض المذكورة من حيث صلاحيتها لتفسير التصريح بالأسماء الحسنى في مواضع الإضمار إلى أقسام:

الأول: أغراضٌ يمكن أن يُقال بها في جميع مواضع إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار، وهي التعظيم، وزيادة التقرير، وتربية المهابة. ومن الأغراض الصالحة في جُلِّ مواضع إظهار الأسماء الحسنى في مقام إضمارها غرض الإشعار بعلّة الحُكم أو الوصف.

الثاني: أغراض لا يقصدها إلا مَن لم يؤمن بالله تعالى وأسمائه وصفاته، فهي لا تقع في كلام المؤمن، اللهم إلا على سبيل حكاية كلام الكافر؛ مثل الاستهزاء أو التحقير. وعليه يمكن أن يُحمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[الفرقان: ٦٠]، فأظهروا الاسم الأحسن، ولم يقولوا: (وما هو) مع إمكانه؛ لانفصال الجملتين من مقول غير واحدٍ، ولعلّهم أظهروا الاسم الأحسن تجهيلًا وتقليلًا أو استهزاءً؛ سفهًا منهم وكِبْرًا وتجاهلًا، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

الثالث: أغراض لم تقع -في حدود بحثي- في هذا الباب. وهي قصد العموم، وقصد الخصوص. ولا أتخيَّل مثالًا صالحًا لها. والله أعلم.

الرابع: أغراض تحتمل أن تكون مرادة في مواضع دون مواضع، ومثالها باقي الأغراض؛ كتفظيع الأمر وتهويله، والتلذُّذ، وتقوية داعي المأمور.

وبعد هذا العرض يمكن تلخيص أغراض إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار -مع ضم النظائر وتحرير الفروق- في المسرد الآتي:

١. التعظيم، وتعظيم الأمر.

٢. زيادة التقرير والتمكين والتأكيد.

٣. الإشعار بعلّة الحُكم أو الوصف.

٤. الإشعار باستقلال الجُمَل.

٥. إجراء الجملة مجرى المثل والكَلِم الجوامع والتذكرة المركَّزة.

٦. تربية المهابة وإدخال الرَّوْع في رُوع السامع.

٧. الاستقباح وتهويل الخطب.

٨. تقوية داعي المأمور.

٩. التوسُّل.

١٠. تقوية الرجاء.

١١. التلذُّذ والاستئناس.

١٢. التلذيذ والتأنيس.

١٣. رفع اللَّبْس.

١٤. دفع توهُّم التشريك في مقام التوحيد.

وفي المبحث الثاني نتناول بشيء من البَسْط والتفصيل، والشرح والتمثيل لأغراض الإظهار في مقام الإضمار في الأسماء الحسنى في القرآن الكريم.

المبحث الثاني
إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار مرتبًا على الأغراض

في هذا المبحث نُورد أمثلة لإظهار الأسماء الحسنى في مقام إضمارها، مرتَّبة على الأغراض؛ لإظهار جماليات هذا الأسلوب القرآني البليغ. وليس من مقصود البحث استيفاءُ كلِّ ما ورد في القرآن الكريم تحت كلِّ غرضٍ، فهذا من الصعوبة بمكان؛ لدورانه في القرآن بكثرة؛ حتى لا تكاد صفحة من المصحف تخلو منه.

وقد تتعدَّد أغراض الإظهار في مقام الإضمار في الموضع الواحد، فنجتهد في ذكرها تحت أكثر الأغراض وضوحًا ومناسبة.

وقد يكون بالمقطع الواحد من الآية أكثر من موضع للإظهار في مقام الإضمار، فنجتهد في ذكرها على رسم الاختصار في مكان واحدٍ؛ تجنُّبًا لكثرة الإحالة، ورغبة في بيان جماليات المقطع المذكور بيانًا شاملًا، فبه يتجلَّى ائتلاف القرآن الكريم، ويستبين تساوقه.

الغرض الأول: التعظيم وتعظيم الأمر:

ويقصد به تعظيم الاسم المُظهَر وتفخيمه، أو تعظيم ما أُضيف إليه الاسم المظهَر وتشريفه، أو تعظيم شأن القضية التي أخبر بها عن الذات العليّة وتفخيمها.

ولا يقوم المضمر لهذا الغرض كما يقوم الاسم الظاهر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[الحاقة: ١- ٣]، لو قال: ما هي وما أدراك ما هي؟ ما كان له هذا الحُسن، «وإنما حسّن تكرير الاسم الظاهر في هذا النحو أنّ تكريره هو الأصل، ولكنهم استعملوا المضمرات، فاستغنوا بها عن تكرير المظهرات، إيجازًا واختصارًا، فلمّا أرادوا الدلالة على التفخيم، جعلوا تكرير الظاهر أمارة لما أرادوه من ذلك»[(١)].

وأعظم مذكور -ولا شكَّ- هو الله تعالى العظيم الأعظم، ولعلّ هذه الحقيقة تُفَسِّر فشُوَّ إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار، فما من مقام أظهر فيه إلا وأفاد التعظيم والتفخيم، مع ما ينضاف لذلك من أغراض أخرى.

ومثال ذلك قوله تعالى في معرض حديثه عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ١٣١]، فقد كان مقتضى الظاهر أن يقول الخليل: أسلمتُ لك، ولكنه صرَّح باسم الربِّ تعظيمًا، وإشعارًا بالعلة؛ إذْ إنَّ ربَّ العالمين هو المستحقُّ وحده الإسلام له، وليس لذي لُبٍّ أن يترك الإسلام له، وقد أسلم له كلُّ شيءٍ، وهو ربُّ العالمين. وكذا فإن في إظهار اسم الربِّ في هذا المقام تلذُّذًا واستئناسًا بذكره. والله أعلم.

(١) أمالي ابن الشجري (٢/ ٦- ٧).

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، حيث صرَّح بالاسم الظاهر، ومقتضى الظاهر أن يقول: (أشدّ حبًّا له)، وذلك تعظيمًا لمقام المحبوب، وتعظيم المُحبّ بتعظيم مقام محبوبه(١)، وتشريفه بحبه، وتفخيمًا للحُبِّ بإضافته إلى الاسم الأجلِّ. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، على قراءة مَن قرأ: ﴿وَضَعْتُ﴾(٢)، تكون أمّ مريم قد أظهرت الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار على سبيل الالتفات، فلم تقل: (وأنت أعلم)؛ تعظيمًا وتفخيمًا(٣).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، لم يقل: (تلكَ آيَاتُنا)، بل أضاف الآيات إلى الاسم الأجلّ تعظيمًا وتفخيمًا. ولم يقل: (ولا نريدُ ظلمًا)؛ وذلك لتعظيم عدل الله تعالى،

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ١٨٦).

(٢) قرأ ابن عامر ويعقوب وشُعبة بإسكان العين وضم التاء، وقرأ الباقون بفتح العين وإسكان التاء. انظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (١/ ١٦٥١).

(٣) وانظر: التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (١/ ٢٥٤)، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٢٨).

وللإشعار بعلّة الحكم؛ إِذْ إنَّ مِن مقتضى إلهيته الحقّة أنه لا يريد ظلمًا لعبيده، وأنَّه إذا أراد نفذت مشيئته. والله أعلم[1].

وقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠- ١٤١]، فيه أكثر من موضع للإظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: (ولنعلم الذين آمنوا)؛ وذلك تعظيمًا لعلمه وتأكيدًا له، وتحقيقًا لمقتضاه؛ إِذْ مقتضى علمه بهم تمكينُهم ونصرُهم في الدنيا، وإحسان ثوابهم في الآخرة، وفيه ضمنًا تفخيمُ شأن المعلوم، وهم الذين آمنوا.

وكذا لم يقل: (وهو لا يحب الظالمين)، أو: (ولا يحب الظالمين)، وذلك تعظيمًا وزيادة تقرير، وتأكيد استقلال الجملتين، وإجراء الثانية مجرى المثل، وتربيةً للمهابة بذكر الاسم الأجلّ، وتقبيحًا للظُّلْم بالإخبار ببُغض الجليل له.

ولم يقل: (وليمحص الذين آمنوا)، بل صرَّح بالفاعل الأجلِّ ﷻ؛ تعظيمًا له تقدّسَت أسماؤه، وتفخيمًا لشأن التمحيص، وتشريفًا للمؤمنين الذين ثبتوا بعد هذا التمحيص. والله أعلم.

---

(١) وانظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٣/ ١٣٥٢- ١٣٥٣).

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[المائدة: ٩٧]، فيه موضعان للإظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: (لتعلموا أنَّه يعلم)؛ تعظيمًا وتربية للمهابة، وتعليلًا للعلم بأنَّه من مقتضى الإلهية.

وكذلك لم يقل: (وأنه بكلّ شيء عليم)، فجرى على خلاف مقتضى الظاهر، وقد أفاد ذلك أمورًا، منها: التعظيم بتكرار ذكر الجلالة، وتعظيم معلوماته ﷻ ببيان شمولها كلَّ شيء بعد بيان شمولها ما في السماوات وما في الأرض. قال مكيّ: «وفي تكرير الاسم في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ -ولم يقل: (وأنه)- معنى التعظيم»[(١)].

ومِن حِكَم الإظهار كذلك: تمكين الفصل بين معانٍ: الحكمة المستفادة مِن جعله البيتَ الحرامَ والشهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ قيامًا للناس، والعلم بكلّ شيءٍ وهو من مقتضى الإلهية، وهذا يستتبع رقابته عليهم، والقدرة المفهومة من علمه بكلّ شيءٍ، وفي هذا تربية للمهابة. وهذا الفصل بين هذا المعاني يُشعر بأهميتها البالغة، فجرى الفصل مجرى التأكيد.

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكيّ بن أبي طالب (٣/ ١٨٨٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨]، فصرح بالاسم الظاهر على طريقة الالتفات، ولم يقل: (ثم إلينا يحشرون)؛ للتعظيم، ولتفخيم القُدرة، ولتربية المهابة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤- ١١٥]، أظهر اسم الربّ في الموضع الأول على طريقة الالتفات من التكلُّم للغَيبة، فلم يقل: (منزَّل منّا) كما هو مقتضى الظاهر، وذلك للتعظيم، وأضافه إلى ضمير النبي ﷺ للتشريف والإكرام، وللتسجيل عليهم أنَّهم كما يعلمون أنَّه منزَّل من عند الله، فإنهم يعلمون أنَّ محمَّدًا ﷺ مربوبٌ، وأنَّه لا يتسنَّى لمن كان مربوبًا أن يأتي بآية مما طلبوا إلا بإذن ربِّه.

ثم أظهر ثانية في موضع الإضمار، فلم يقل: (وتمت كلماته) أو (كلماتنا)؛ تفخيمًا للكلمات وتعظيمًا، وتلذيذًا وتأنيسًا بذِكْر اسم الربّ المضاف إلى ضمير النبي ﷺ، وتذكيرًا بعد تذكير بما له سبحانه على عبده ونبيّه ﷺ من الإحسان، وتنبيهًا بعد تنبيه على ما يريد به من التشريف والإكرام[1].

(١) وانظر: نظم الدرر، للبقاعي (٧/ ٢٣٨).

وقوله تعالى في حكاية قولِ نوحٍ ﷺ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١- ٦٢]، وقوله تعالى في حكاية قول هود ﷺ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧- ٦٨]، صرّح بالظاهر فيهما في موضع الضمير في مقولهما، فلم يقولا: (أبلِّغكُم رسالاته)؛ وذلك لِمَا تُؤذِن به إضافة الربِّ إلى ضمير المتكلِّم من تعظيمه ومن لزوم طاعته، وأنه لا يَسعه إلا تبليغ ما أمره بتبليغه، وإن كره قومه(١).

وفيه كذلك التصريح بأنَّ الرسول ﷺ مربوب، فقال: (ربي)، بعد قوله: (ربّ العالمين)؛ إشارةً إلى أنَّه من جُملة هؤلاء العالمين، وليس له مزية عليهم إلا أنَّ الله اصطفاه لتبليغ رسالته إليهم. وفيه كذلك تطمينٌ لنفسه بمعيّة الله تعالى الخاصة له وللمؤمنين وكِلاءته لهم.

وفيه أيضًا التلذُّذ والاستئناس بتكرير ذكر اسم الربِّ.

وفي قول نوحٍ: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، كذلك تصريحٌ بالظاهر في موضع الضمير، فلم يقل: (وأعلم منه ما لا تعلمون)؛ للتعظيم،

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨- ب/ ١٩٤).

ولتفخيم المعلوم بتقرير كونه من عند الله ﷻ، ولتعليل العلم الذي اختُصَّ به دونهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، قرأ الجمهور: وكلمةُ الله، بالرفع على الابتداء، وقرأ يعقوب بالنصب على العطف[(١)]، أي: وجعَلَ كلمَتَه. وعلى القراءتين فقد أظهر في مقام الإضمار.

ولم يستحبَّ الفرَّاء قراءة النصب؛ لأنه -من وجهة نظره- لو نصب لكان الأجود أن يُضمر، قال: «ولستُ أستحبُّ ذلك؛ لظهور الله تبارك وتعالى؛ لأنه لو نصبها -والفعلُ فعلُه- كان أجود الكلام أن يُقال: (وكلمته هي العليا)؛ ألا ترى أنك تقول: قد أعتق أبوك غلامَه، ولا يكادون يقولون: أعتق أبوك غلامَ أبيك»[(٢)].

وبنحو هذا عن أبي حاتم السجستاني[(٣)]، وجوَّزها أبو بكر ابن الأنباري على قُبح[(٤)]. وردَّ النحّاس عليهم بأنَّ النصب جيدٌ حسنٌ لا إشكال فيه، بل يقول

(١) انفرد يعقوب عن العشرة بقراءة (وكلمةَ الله) بنصب تاء التأنيث، ورفَعها سائرهم. انظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٥/ ١٧٢٤).

(٢) معاني القرآن، للفرّاء (١/ ٤٣٨).

(٣) انظر: القطع والائتناف، للنحّاس، وإعراب القرآن له (٢/ ١١٩).

(٤) إيضاح الوقف والابتداء، لابن الأنباري (٢/ ٦٩٣).

النحويون الحذّاق: إنّ في إعادة الذِّكر في مثل هذا فائدة، وهي أنّ فيه معنى التعظيم. قال الله ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[الزلزلة: ١-٢]، فهذا لا إشكال فيه[(١)].

وضعَّفها العكبري من ثلاثة أوجه؛ أحدها: أنّ فيه وضْعَ الظاهر موضع المضمر؛ إذ الوجه أن تقول: (كلمته). والثاني: أنّ فيه دلالةً على أن كلمة الله كانت سفلى، فصارت عليا، وليس كذلك. والثالث: أن توكيد مثل ذلك بـ(هي) بعيد؛ إذ القياس أن يكون إيّاها[(٢)].

وأجابه السمين الحلبي بقوله: «أمّا الأول فلا ضعف فيه؛ لأن القرآن ملآن من هذا النوع وهو من أحسن ما يكون؛ لأن فيه تعظيمًا وتفخيمًا[(٣)]. وأمّا الثاني فلا يلزم ما ذكر، وهو أن يكون الشيء المُصيَّر على الضد الخاصّ؛ بل يدلُّ التصيير على انتقال ذلك الشيء المُصيَّر عن صفةٍ ما إلى هذه الصفة. وأمّا الثالث فـ(هي) ليست تأكيدًا البتة، إنما هي ضمير فصل على حالها، وكيف تكون تأكيدًا وقد نصّ النحويون على أن المضمر لا يؤكّد المظهر؟!»[(٤)].

---

(١) إعراب القرآن، للنحّاس (٢/ ١١٩- ١٢٠).

(٢) التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/ ٦٤٥).

(٣) وإن تعجب فعجبٌ هذا القول من العكبري، وهو بنفسه يُكثر من التوقيف على هذا الأسلوب القرآني والاعتلال والاستشهاد له. وجَلَّ مَن لا يسهو.

(٤) الدر المصون، للسمين الحلبي (٦/ ٥٣).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فيه إظهار في موضع الإضمار كذلك، والغرض منه تقوية استقلال جملة التذييل، والإشعار بعلّة الحكم بسفول كلمة الذين كفروا، وعلوّ كلمة الله؛ إِذْ من مقتضيات إلهيته عزتُه فلا يغلبه شيء، وحكمتُه فلا يفوته مقصد، فلا جرم أن تكون كلمته هي العليا وكلمة ضده هي السفلى[(١)].

وقوله تعالى في حكاية قوم صالحٍ ﷺ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ [هود: ٦٣]، أظهر في موضع الإضمار، وعبَّر بالاسم الأجلّ بعد التعبير باسم الربّ تعظيمًا، وتربية للمهابة، وإدخال الرَّوع، وتهويلًا وتفظيعًا لِمَا يريدونه من عصيان الله تعالى بترك تبليغ ما أرسل به إليهم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٧٤- ٧٦]، ولم يقل: (قد جاء أمري أو قد جاء أمرنا)؛ لتعظيم الأمر وتربية المهابة، بما يجب معه على إبراهيم ﷺ أن يترك الاستشفاع لقوم لوط ﷺ. وفيه كذلك إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطب العائد على إبراهيم ﷺ

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/ ٢٠٦).

(٢) وانظر: نظم الدرر، للبقاعي (٩/ ٣٢١).

للإشعار بوجوب طاعته، وللمواساة؛ لأنَّه لـمَّا ردَّ شفاعته فيهم؛ فمَن كان كإبراهيم ﷺ قد يعود على نفسه باللائمة، فقام هذا التشريف مقام المواساة لردِّ شفاعته. والله أعلم.

وهذا التخريج أَوْلَى عندي من قول ابن عاشور: «وجملة: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾ مقول محذوف دلّ عليه المقام وهو من بديع الإيجاز، وهو وحي من الله إلى إبراهيم ﷺ أو جواب الملائكةِ إبراهيمَ ﷺ فإذا كان من كلام الله فقوله: ﴿أَمۡرُ رَبِّكَ﴾، إظهار في مقام الإضمار؛ لإدخال الرَّوع في ضمير السامع»[1].

فإبراهيم مستشفِع، والمستشفِع لا يُروَّع، بل يكفي أن يقال له: (لا تخاطبني فيهم)، لا سيما الخليل إبراهيم الذي وفَّى ﷺ. ويُستأنس لذلك بأنَّه جاء في عقب تبشيره بقوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [هود: ٧٣]، وبعد ذكر إذهاب الرَّوع عنه، والرحمة تنافي إدخال الروع عليه بعتابه بعد أنْ أذهبه عنه. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢/ ١٢٤).

﴿أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠١- ١٠٢]، ذكر الاسم الظاهر في موضع المضمر على طريقة الالتفات، وكان مقتضى الظاهر: (التي يدعون من دوننا من شيء لمّا جاء أمرنا)، (وكذلك أمرنا).

فتلك ثلاثة مواضع، الثاني والثالث منها أفاد فيها التصريح بالاسم الظاهر في موضع المضمر التعظيم والتفخيم: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾، و﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، وإضافةُ اسم الرب إلى ضمير النبي ﷺ تشريفٌ للنبي ﷺ، وإشعارٌ بالعناية وتأكيدٌ للنُّصرة.

وأمّا في الموضع الأول، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[هود: ١٠١]، فصرّح بالاسم الأجلّ على طريقة الالتفات؛ لتهويل الخطب، وزيادة التشنيع عليهم، واستقباح فعلهم؛ إذ دعَوا من دون الله ما لا يغني عنهم شيئًا، ولا يستطيعون لهم نصرًا، ولا أنفسهم ينصرون. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١- ٢]، أظهر في موضع الضمير، فلم يقل: (إلى صراطه)، وإنما أضاف الصراط تشريفًا له إلى الاسمين الأحسنين العزيز الحميد، وعطف عليهما الاسم الأجلَّ الموصوف بالصِّلَة المذكورة الدالة على تمام ملكه[(١)]. وتشريف

(١) وذلك على قراءة مَن قرأ لفظ الجلالة بالجر، وهم الجمهور إلا المدنيَّيْنِ وابنَ عامر، وأما مَن قرأه بالرفع، وهم المدنيان وابن عامر؛ فهو مبتدأ مستأنفٌ، ويكون المظهر في موضع المضمر ﴿ٱلْعَزِيزِ =

الصراط يقتضي تشريفَ المنزَل لغاية الهداية إليه وهو القرآن الكريم، وتشريفَ المنزَل إليه، وهو النبي ﷺ. ولأجل ذلك أظهر الأسماء الحسنى الثلاثة على رسم الغاية في التعظيم والتفخيم. والله أعلم.

ومناسبة ذِكر ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ لهذا الموضع أنَّ مِن صفة هذا الكتاب العزةَ المفسَّرة بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢]، وكونُه كذلك قاضٍ بصلاحيته لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك فإنَّ إخراجَهم من الظلمات إعزاز لهم، وهو من آثار عزّة الله تعالى وما في ضمنها من القدرة، وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس فهو به غالب للمخالفين مقيم الحجة عليهم. واستيجاب الحمد من جهة بثِّ هذه النعم على العالم في نصب هدايتهم بهذا الكتاب، فهو نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه وعلى ما يُعرّف به من سائر النِّعم[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥- ٩٦]، فيه ذكر للاسم الأجلّ في موضع المضمر

=

﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ فقط. والله أعلم. وانظر: اختلاف القراء في هذا الحرف في النشر، لابن الجزري (٥/ ١٧٦١).

(١) وانظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٣/ ٣٢٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣/ ١٨١).

على طريقة الالتفات، فلم يقل: (الذين يجعلون معنا)؛ للتعظيم، ولتهويل الخطب، واستقباح فعلهم بجعلهم مع الله إلهًا آخر.

وفيه ملمح لطيف، وهو مواساة النبي ﷺ وتسليته بأنهم ما اقتصروا في الافتراء عليه والاستهزاء به؛ بل بلغت بهم الجراءة أن افتروا على الله تعالى وادَّعوا أن معه آلهة أخرى[1]. وإظهار الاسم الأجلّ في هذا أدلُّ على هذا المراد من الإضمار. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، فيه تصريح بالظاهر في موضع الإضمار، فمقتضى الظاهر: (وما كان عطاؤه محظورًا)، ولكن أعاده تفخيمًا وتعظيمًا، وإطماعًا، وتلذيذًا بذكره. وأخرجه على طريقة الالتفات لزيادة التفخيم، وللتنبيه بالشرف البالغ. والله أعلم.

وإضافة العطاء إلى الربِّ تنبيه على أنَّه عطاء لا ينفد ولا ينتهي، فالله ﷻ هو رب الوجود، وهو الذي يمده بالحياة، ويمده بالمدد المستمر الذي لا ينقطع[2]. وإضافة الكلِّ إلى ضمير النبيّ ﷺ مفيدة للاختصاص؛ تكريمًا للنبي ﷺ، وتنويهًا بشرفه، وإلماحًا إلى أنَّ مَن أراد أشرف العطاءَين فلينظر إلى أيهما أُقِيم

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٤/ ٩٠).

(٢) انظر: تفسير المراغي (٨/ ٤٣٥٨).

فيه هذا الذي شرَّفه الله تعالى، فهو العطاء الجدير بأن يُحرص عليه ويُسعى في تحصيل أسبابه.

فانظر إلى هذه المعاني الجليلة: هل كانت لتفهم لو خرج الكلام بالإضمار دون التفات؟

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، فيه إظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: (لابتغوا إليه سبيلًا)، وذلك للتعظيم والتفخيم، وبيان أنَّ ذا العرش هو مَن له السلطان الكامل في ملكه، وأنَّه المقتدر المتفرد بالملكوت لا شريك له[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، كرَّر الاسم الأجلَّ على خلاف مقتضى الظاهر، فلم يقل: (يذكر فيها اسمه)؛ تعظيمًا للمذكور، وتشريفًا للذَّاكِر، وتفخيمًا للذِّكر.

ولم يقل: (ولينصرَنَّ مَن ينصُره)؛ تعظيمًا وتحقيقًا وتقوية لرجاء المجاهدين، ولزيادة التمكُّن، ولتأكيد استقلال الجُمَل، وإشعارًا بعلّة الحُكم؛ إِذْ

(١) انظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٨/ ٤٣٨٩).

من مقتضيات إلهيته ﷻ نصره لأوليائه. وناسب التصريح بالاسم الأجلِّ توكيد الفعل (ولينصرَنَّ). والله أعلم.

ولم يقل: (إنّه لقويّ عزيز)؛ تعظيمًا، وتأكيدًا لاستقلال الجُمَل، وإجراءَ التذييل مجرى المثل، وإشعارًا بعلّة الحُكم؛ إِذْ من مقتضيات إلهيته ﷻ قوّته البالغة وعزّته المانعة. وناسب أيضًا التصريح بالاسم الأجلّ تأكيد الخبر بلام التأكيد. فهذه من المناسبة اللفظية والتركيبية الدقيقة المرعية في اختيار الألفاظ القرآنية، فتأمّل! والله أعلم.

ومثل ذلك يُقال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[الحج: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]، أظهروا في موضع الإضمار، فلم يقولوا: (لولا أن منَّ علينا)؛ للتعظيم، وتفخيم المِنَّة، ولاستقلال الجملتين، واحتمال أن تكون كلٌّ منهما من حكاية بعضهم دون بعض. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ

﴿وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٢٧- ٣٠]، لمّا كان المقام مقامَ تعظيمٍ لله تعالى، وتأكيدٍ على وحدانيته، واستدلالٍ على كمال ألوهيته، وعلمه المحيط وقدرته المطلقة، ونحو ذلك؛ أكثرَ إظهار الاسم الأجلّ ههنا في موضع الإضمار مرارًا(١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧].

ولم يقل فيهما: (وما ذلك عليه بعزيز)؛ لِما في ذكر الاسم الأجلّ من الفخامة والعظمة، وتنويهًا بقدرته على كلّ شيءٍ، وإشعارًا بعلّة الحكم؛ ذلك أنَّ قدرته وعزته وحكمته من مقتضيات إلهيته.

وفيه كذلك فصل الجملتين لتتوازنا في المعنى، ولتتكاملا في الدلالة على قدرة الله ﷻ المطلقة؛ ببيان افتقار الناس إليه، وغناه عنهم. والله أعلم.

(١) وانظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (١٥/ ٢٠٣).

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣- ٢٤]، لم يقل: (ليجزي الصادقين)؛ بل صرَّح بالاسم الأجلّ لتعظيم الجزاء[1]، ولتقوية جانب الرجاء، وللإشعار بعلَّة الحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فيه إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (إذ نادانا)؛ وذلك للتعظيم، ولتشريف أيوب عليه السلام بإضافة الربّ إلى ضميره بعد وصفه بالعبودية، وتفخيم ندائه ودعائه، وفيه كذلك إشعار بعِلّة توجهه إليه بالدعاء؛ إذْ من مقتضيات ربوبيته أن يكون مَفزعَ مربوبِيه، وقاضيَ حاجاتهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٢- ٣]، فيه خروج عن مقتضى الظاهر، فلم يقل: (ألا له الدين الخالص)؛

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢١/ ٣٠٩).

وذلك مفيد للتعظيم والتفخيم، والاعتناء بالدِّين الذي هو أساس كلّ خير[1].

وفيه أيضًا زيادة تمكُّن، وإشعار بعلّة الحكم؛ إذ الوحدانية من مقتضيات الإلهية، والإله الواحد يجب أن يكون له الدين الخالص.

وأمّا قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ فليس فيه وضع للظاهر في موضع المضمر؛ إِذْ إنَّه حكاية لقولهم، والمعنى: يقولون ما نعبد هؤلاء الأولياء -زعموا- إلا لنتقرّب بعبادتهم إلى الله.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الزمر: ٣]، تصريح بالظاهر في موضع المضمر، فلم يقل: (إنه يحكم بينهم)؛ وذلك للتعظيم والتقرير، وتربية المهابة، والتسجيل عليهم؛ كأنه قال: زعمتم أنّهم يقرّبُونكم إلى الله، فالله الذي زعمتم أنه يرضى بوساطتهم هو يحكم بينكم، فلترضوا به حَكَمًا، وهو غاية اتّخاذكم الشركاء من دونه، فبقياس الأَوْلى ارضوا بحُكمه فيكم إذن يوم القيامة، وهو منطوٍ على شيءٍ من التهديد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]، فيه تصريح بالظاهر في موضع المضمر، فلم يقل: (إنه لا يهدي)؛ وذلك غرضه التعظيم، وزيادة التمكّن، وتربية المهابة، ولتستقلّ جملة التذييل فتخرج مخرج المثل،

(١) انظر: روح المعاني، للألوسي (١٢/ ٢٢٥).

وللإشعار بعلّة الحُكم؛ إذْ مَن كان إلهًا لا يهدي الكذبة الكُفَّار، وذلك من مقتضيات إلهيته. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الزمر: ٣٤-٣٥]، فيه إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: (ليُكفّر عنهم)؛ وذلك للتعظيم، ولإبراز العناية بمضمون الكلام(١)، ولتقوية رجاء الأولياء في حسن الجزاء، ولتعليل الحكم؛ باستتباع مقام الإلهية قدرتَه على المجازاة، وإحكامَ هذا الجزاء، وحسن وضعه موضعه؛ ولذا عدل من التعليل بالربوبية المتناسب مع قوله: (عند ربهم) إلى التعليل بالإلهية المقتضية كمال صفات القدرة والحكمة والإحسان. والله أعلم.

ومن لطيف ما وقع من ذلك كون المظهر اسمًا من الأسماء الحسنى غير الجلالة، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، فأظهر في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (ذلك تقديرنا)؛ والغرض من ذلك تعظيمُ المُقدِّر، وتفخيم التقدير بإسناده إلى الاسمين الأحسنين ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾؛ ليُعلم أنّ هذا التقدير مقدَّرٌ واقعٌ لا محالة؛

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٧/ ٢٥٥).

إِذْ هو تقدير العزيز الذي لا يغالَب ولا يمانَع عن أمره، ولا يجري شيء في ملكوته إلا بإذنه، العليم الذي يعلم ما يقول وما يقضي به، ويعلم كيف يُسيِّر ملكوته؛ فلا يجري شيء في ملكوته إلا بعلمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧- ٣٨]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (واسجدوا له)؛ تنبيهًا على مزيد عظمته؛ أي الذي له كلّ كمال، فلا يأفل كالشمس والقمر، ولا يفنى ولا يبيد؛ بل هو الذي خلقهنَّ وسيّرهنَّ إلى أجَلٍ مسمًّى. وتوصَّل إلى هذا الوصف بإظهار الموصوف، ولو أضمر ما تسنَّى الوصف.

ثم أظهر في موضع الإضمار ثانية، فلم يقل: (فالذين عنده)؛ وعبَّر باسم الربّ تعظيمًا، وإشعارًا بأنَّ الكلَّ مربوبٌ خاضعٌ له -سبحانه- وإن أظهروا الكِبْرَ، وأضافه إلى ضمير النبي ﷺ تشريفًا وإكرامًا، وتعريضًا لهم بأنَّ مَن هو أكرم منهم على الله ﷻ مربوبٌ لا يتكبَّر، ولا يستنكف أن يكون عبدًا له، ولو كان الشَّرَف والمنزلة عند الله تعالى داعيةً للكِبْر فغيركم أحقُّ به منكم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٦- ٥٧]، ذِكر

الربّ إظهار في مقام الإضمار، ومقتضى الظاهر أن يقال: (فضلًا منه). ولعلّ نكتتَه التعظيمُ والتفخيمُ، وتشريفُ مقام النبي ﷺ والإيماءُ إلى أنّ ذلك إكرامٌ له؛ لإيمانهم برسالته واتباعهم لهديه ﷺ. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، فيه كذلك إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: (فبأي حديث بعده وبعد آياته يؤمنون)؛ تعظيمًا وتفخيمًا. وقيل: المراد: بعد آيات الله، ولكنه أخرجها على التعظيم، كما تقول: أعجبني زيدٌ وكرمُه، وأنت تريد: أعجبني كرمُ زيد؛ عدلوا عنه مبالغةً في الإعجاب والتفخيم؛ كأنَّك جرّدتَ منه كيانًا مُعجِبًا هو الكَرَمُ بعينه. وفيه دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان، ولا آية أدلّ من هذه الآية. وتفخيم شأن الآيات بالإشارة إليها بـ﴿تِلْكَ﴾ وإضافتها إلى الله ﷻ، وجعل ﴿نَتْلُوهَا﴾ حالًا مع ضمير التعظيم ثم تكرير الاسم الجليل وإضافتها إليه بواسطة الضمير مرة أخرى للنكتة المذكورة[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١- ٢]، فيه إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات من الكلام إلى الغَيبة، فلم يقل: (لنغفر لك)؛ وذلك

(١) انظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٢٨٥)، وروح المعاني، للألوسي (١٣/ ١٤٠).

لتعظيم المغفرة، ولتشريف النبي ﷺ باختصاصه بغفران ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، ولزيادة التمكُّن والتقرير وتأكيد تحقُّق الأمر.

قال ابن عاشور: «وإنما أسند فعل (ليغفر) إلى اسم الجلالة العَلَم، وكان مقتضى الظاهر أن يسند إلى الضمير المستتر؛ قصدًا للتنويه بهذه المغفرة؛ لأن الاسم الظاهر أنفذُ في السمع وأجلبُ للتنبيه، وذلك للاهتمام بالمسند وبمتعلّقه؛ لأن هذا الخبر أُنُفٌ لم يكن للرسول ﷺ علمٌ به، ولذلك لم يبرز الفاعل في: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ﴾ [الفتح: ٢]؛ لأن إنعام الله عليه معلوم، وهدايته معلومة، وإنما أخبر بازديادهما»[(١)].

ومما يرجِّح توجيهَ ابن عاشور أنَّ الله ﷻ قال بعدها: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]، إذْ في عام الحديبية استبطأ المسلمون الفتحَ والنصرَ اللَّذَيْن بُشِّروا بهما ووُعِدُوهما، فسِيق الكلام لتأكيد وقوعهما، وهو ما اقتضى إظهار الاسم الأجلِّ. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فيه إظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: (وهو يعلم إنَّك لرسوله، وهو يشهد)؛ للتمكين، ولتعظيم الشاهد، وتفخيم

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٤٧- ١٤٨).

شهادته، فليست شهادة هؤلاء المنافقين بإزاء شهادة الله تعالى شيئًا. وفيه تعظيم للرسول ﷺ بشهادة الله ﷻ له أنه ﷺ رسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (قد أحسنَ له رزقًا)؛ للتعظيم، ولإظهار الاعتناء بحسن ثواب المؤمنين وتفخيمه.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٤- ٨]، أظهر الاسم الأجلَّ على طريقة الالتفات، فلم يقل: (ألَسْنَا بأحكمِ الحاكمين) كما يقتضي الظاهر؛ وذلك للتعظيم والتفخيم، وتأكيد استقلال جملة التذييل لتجري مجرى المثل، ولدفع توهُّم التشريك. والله أعلم.

الغرض الثاني: زيادة التقرير والتأكيد والتمكُّن:

زيادة التقرير من الأغراض الأساسية التي يصحُّ أن تكون مُرادة في كلِّ إظهار في مواضع الإضمار، فالإظهار يُقرِّر المعنى المسوق، ويؤكّده، ويفيد إفراد المظهر بالأمر المسند إليه.

ومن أسباب إفادة الظاهر زيادة التقرير والتأكيد والتمكُّن أكثر من المضمر:

الأول: أنَّ المضمَر لا يخلو عن إبهام في دلالته على ما يعود إليه، وهو في كلٍّ مفتقر إلى ما يعود إليه؛ بخلاف المظهَر، فإذا أُلقي على السامع ما لا إبهام فيه تمكَّن من ذهنه.

الثاني: أنَّ المظهَر لـمَّا أتى على خلاف مقتضى الظاهر، فوقع موقعه في رُوع السامع؛ كان كحدوث شيء غير متوقّع، فيسترعي الانتباه، فيؤثّر في النفس تأثيرًا بليغًا، ويستولي عليها.

الثالث: أنَّ في الإظهار من الفخامة والتعظيم ما ليس في الضمير، وخصوصًا إذا كان المظهَر عظيمًا شريفًا جليلًا، وهذه الفخامة بذاتها تقتضي التقرير والتأكيد والتمكين بإظهاره، فيكون الاعتناء بالعبارة عنه مكافئًا لبعض ما يستحقُّه من التفخيم والإجلال.

الرابع: أنَّ في المُظهَر زيادة وصفٍ عن الضمير، وفيه معنًى قد يكون التأكيد عليه لازمًا للمقام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فشتّان ما بين قوله: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وما لو قال: (بينهم) كما هو مقتضى الظاهر، فإنَّ فيه تقريرًا لإيمانهم، وتحقيقًا لوصفهم بذلك، وإنْ شجرَ بينهم خلافٌ فهذا لا يُسقط وصف الأُخوَّة بينهم، وفيه تعطيفُ بعضهم على بعضٍ بذكر الأُخوَّة، وفيه تعليل للأمر؛ فإن من مقتضيات الأخوّة الحقّة أن يُسعى لتصفية ما قد يعتريها من كدر. والله أعلم.

ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، لم يقل: (ما ترى فيها من تفاوت)؛ زيادة لتقرير أنَّ الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، ولتعميم الحُكم، أيْ إن لم تر في هذه البنية العظيمة

تفاوتًا فكذلك لن ترى شيئًا من ذلك في شيء من خلقه تعالى، وللتفخيم والتعظيم لهذا الخلق بإضافته إلى اسم الرحمن. وفي إيثار التعبير باسم الرحمن إشعارٌ بأنه تعالى يخلق مثل ذلك بقدرته الباهرة رحمة وتفضلًا، وأنّ في إبداعها نعمًا جليلة لا تُحصى، وذلك موجب للحمد على نظرها؛ لأنها مسارح أنظار المتفكّرين، ومهابط أنوار رب العالمين[1]. ولعلّ فيه إيماءً كذلك إلى أنَّ وقوع التفاوُت في هذا الخلق يستلزم النقص، والناقص لا يُوصف بكمال الرحمةِ، وإنما كمال الرحمة في كمال القدرة، فيقدر أن يوصل رحماتِه إليهم.

(١) وانظر: أسرار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ٢٢٨)، وفتوح الغيب، للطيبي (١٥/ ٥٣٧).

المواضع التي يحسن فيها الإظهار في مقام الإضمار بغرض زيادة التقرير والتأكيد والتمكن:

١. عند إرادة التأكيد على انفراد المُظْهَر بالحُكم:

اعلم أن المقام الذي يقتضي زيادة التقرير والتمكّن هو كون الغرض من الخطاب تعظيم المسند إليه وإفراده بالحكم[(١)]، أو في المواضع التي يصرّح فيها بالحكم له على غيره بالخيرية، أو بأنَّ أفعاله لها المنتهى في الحسن، أو نحو ذلك، من معاني التفضيل.

ومثاله قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

ولم يقل: (فلا تجعلوا له)، ولكن أظهر في موضع الإضمار، لزيادة التمكُّن، ببيان أن الربَّ المنعِمَ المحسنَ، هو الله المستحقّ لإفراده بالعبادة، وتنزيهه عن الأنداد، فأفاد التعبيرُ بالاسم الأجلّ تعيينَ المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات، وتعليل الحكم بوصف الألوهية التي عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة، والإيذان باستتباعها لسائر الصفات[(٢)].

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٣٨هـ= ٢٠٠٧م، (١/ ٧١٣).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ٦٢).

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فأظهر في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، ولم يقل: (ثوابًا من عندي)؛ وذلك لتعظيم المُثيب، ولتفخيم الثواب، وتشريف المثوبين، وتقوية رجائهم فيما عنده من الثواب، وزيادة في التمكُّن والتحقيق بنسبة الثواب إلى مَن له كمال الألوهية.

وكذا لم يقل: (وعنده حسن الثواب)؛ زيادة في التقرير والتحقيق والإيغال ببيان حسن ثوابه، إِذْ يعاملهم بمقتضى كرمه قضاءً، وبمقتضى إحسانه جزاءً، ولما كانت صفات الألوهية تستتبع هذا الكرم وذلك الإحسان؛ حسن إظهار الاسم الأجل والتصدير به، مع ما يفيده هذا التصدير من الاختصاص، فكأنه قال: والله وحده عنده حسن الثواب، وهذا لا يُستفاد من عبارة: (وعنده حسن الثواب).

وفيه كذلك تهيئة جملة التذييل لتستقلَّ فتسير مسير المثل والتذكرة الجامعة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠]؛ أظهر في موضع الإضمار تربية للمهابة، وتقوية لرجاء المسلمين في نصر الله تعالى لهم، وتأكيدًا، وتحقيقًا لمجازاة الله تعالى للذين كفروا بمكرهم بما يليق بوصف الألوهية، وبما لا يضاهيه فيه أحد، فمن لوازم هذه المجازاة بمكرهم عدم الغفلة عن مكرهم، وإن ظنُّوا عكس ذلك لإمهال الله تعالى لهم، ومن لوازمها أن يلاقوا وبال مكرهم من حيث لم يحتسبوا؛ ولذا وقع التصدير بالاسم الأجلّ موقع التعظيم والتأكيد والتحقيق، وهيَّأ بالإظهار جملة التذييل للاستقلال فتسير مسير المثل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٠- ٧٢].

أعاد اسم الجلالة هنا دون إضمار؛ لأنَّ مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المستدَلّ -بفتح الدال- على إثبات صفاته تصريحًا، فالإظهار هنا زيادة في التمكُّن؛ لأنَّ دلالة الاسم العَلَم أوضح وأصرح، فهو مقتضى تحقيق انفراده

-سبحانه وتعالى- بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم؛ لأنَّ المشركين يُقرُّون بأن الله هو فاعل هذه الأشياء(١).

ومثل هذا يقال في هذه السورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمۡ مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[النحل: ٨٠- ٨١]. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾[الحج: ٧٤]، وضع اسمه الأعظم الجامع لأسمائه الحسنى موضع الضمير؛ تقريرًا لتفرده سبحانه بالقوة الكاملة والعزة القاهرة(٢).

وقوله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، فيه إظهار في محلّ الإضمار على سبيل الالتفات، فلم تقل: (وأسلمتُ مع سليمان لك)؛ كما هو مقتضى الظاهر، وذلك لزيادة

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٤/ ١٩٨، ٢١١).

(٢) فتوح الغيب، للطيبي (١٠/ ٥٣٢).

التمكُّن بالإقرار له وحده بالألوهية والربوبية لكلّ ما في الكون من مربوباتٍ ومنها الشمس التي كانت وقومُها يسجدون لها من دون الله[(١)].

وحسَّن ذلك أيضًا معنى الاستئناف في الجملة الثانية؛ أي: ظلمتُ نفسي فيما مضى بعبادتي الشمس، واستأنفَتْ فقالت: وقد أسلمتُ من الآن مع سليمان لله رب العالمين. ولذا يحسن للقارئ وقف البيان على (نفسِي)، والاستئناف بـ(وأسلمتُ). والله أعلم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فيه موضعان صُرِّح فيهما بالاسم الظاهر في موضع الضمير، فلم يقل: (ولا يخشون أحدًا إلا هو، وكفي به حسيبًا)، وأفاد ذلك التعظيمَ، وزيادةَ التمكُّن بالتصريح بالاسم المستحقّ وحده أن يُخشى دون غيره، وتربيةَ المهابة، واستقلالَ جملة التذييل فتخرج مخرج المثل.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ٣- ٧]، فيه تصريح بالاسم الظاهر في موضع الضمير، فلم يقل: (وله فاصبر)؛ لطول الفصل، فحسُن موقع الاسم الظاهر، ولزيادة التمكُّن؛ إذ الكلام مُرادٌ به الأمر بالإخلاص في صبره لله تعالى، لا مجرّد الصبر، وفيه

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ٢٨٩).

(٢) انظر: التأصيل والتقعيد لأقسام الوقف والابتداء، لمحمود روزن، ص١٧٨.

تقوية داعي المأمور إذا أيقن أن صبره لِمَن يوفِّي الصابرين أجرَهم بغير حساب، وفيه كذلك التأنيس بتكرار ذكر الربِّ، مع إضافته لضمير المخاطب ﷺ؛ للدلالة على كمال العناية.

٢. في المواضع التي تتعدَّد فيها أغراض الإظهار في مقام الإضمار:

وذلك أنَّ المحصول البلاغي للتعبير بالاسم الصريح والتعبير بالضمير يظلُّ متقاربًا إن كان للإظهار غرضٌ واحدٌ، وأمَّا إن كان الإظهار يوفي بالعديد من الأغراض البلاغية؛ فإنَّ الاسم الظاهر يقع حينئذ ممكّنًا مقررًا.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، فأظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وهو رؤوف بهم)، فصرَّح بالاسم الأجلّ في موضع الضمير، تعظيمًا، وزيادة في التمكُّن، وتعليلًا بتقرير أنَّ الرأفة من لوازم الألوهية، ولتستقلَّ الجملة بإظهار الاسمين فتخرج على طريقة الأمثال. والله أعلم.

وكذا وضع (العباد) موضع ضمير (بهم) إشارةً إلى أنَّهم لمّا شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله فقد حقّقوا مناط العبودية. وناسب إظهارُ الاسم الأجلّ في موضع المُضمَر إظهارَ العباد في موضع ضميرهم. فهذا ضرب من ضروب الائتلاف، فتأمّل!

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[الأنفال: ٢٢- ٢٣]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، فلم يقل: (ولو علم فيهم)، وذلك للتعظيم، ولتربية المهابة، وللتشنيع عليهم، وللتأكيد على انتفاء انتفاعهم بالهدى، وإشعارًا بعلة الحكم؛ إِذْ من مقتضى الألوهية العلم المحيط بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، والحكمة في التقدير، والقدرة على إنفاذ المشيئة على مَن يظُنُّ أنَّه يُعجِز اللهَ هربًا. فكلّها أمور لا يناسبها إلا إظهار الاسم الأجلّ.

وفيه كذلك تسيير الجملة مسير الكَلِم الجوامع، والأمثال. وقد كان[1].

وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[التوبة: ٢]، فيه إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: (وأنه مخزي الكافرين)؛ زيادة في التمكّن، وتقريرًا وتحقيقًا لِما أَوْعَدهم من الخزي، وتأكيدًا على أنَّ الحكم فيهم صادرٌ من الله ﷻ لكفرهم، ولذا عبَّر بـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في موضع ضميرهم، ولم يقل: (يخزيهم)؛ تعليلًا للأمرين: أنَّ حُكمه فيهم واقتداره عليهم من مقتضيات ألوهيته، وأنَّ خزيهم إنما كان بسبب كفرهم. والله أعلم.

---

(١) ذكر جعفر بن محمد شمس الخلافة قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ من الألفاظ التي يُتمثَّل بها من القرآن، انظر: الآداب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م، ص٦٢.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢- ٥٣]، أظهر في موضع الإضمار على طريقة الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة، فلم يقل: (صراطنا)؛ وذلك زيادة في التمكُّن وليتأتى الوصف بجملة الصلة، ولتفخيم الصراط بإضافته إلى الاسم الأجلّ.

وكذا لم يقل: (إليه تصير الأمور)؛ لزيادة التمكُّن والتحقيق، ولتربية المهابة، ولتعليل الحكم إِذْ من مقتضى الألوهية صيرورة الأمر كلّه إليه، ولتستقل جملة التذييل فيتهيأ تسييرها مسير المثل. والله أعلم.

٣. عند التشكيك في أمرٍ يكون المُقتضى تقريره والتأكيد عليه:

وهذا واضح، فالتشكيك في أمرٍ ثابت في اعتقاد المُتكلِّم يقتضي أن يبالغ في تأكيده وتقريره بقدرِ صدقه في ذات الأمر، وبقدر تشكيك المشكِّكين ومِرائِهم فيه.

ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، فقد كان يكفيه أن ينفي عبوديته لما يعبدون من دون الله ﷻ، ولكنه أكَّده بأنَّه يعبده سبحانه وحده، وصرَّح بالاسم الظاهر؛ فلم يقل مثلًا: (ولكن أعبده)؛ زيادة في التقرير والتأكيد، ولم يُظهر ليتوصَّل بالإظهار إلى الوصف، فقد كان

يمكن أن يقول: (ولكن أعبدُ الذي يتوفَّاكم)، فعُلِم أنَّ الإظهار جاء تقريرًا وتأكيدًا على إفراده الله ﷻ بالعبودية، وعلى أنَّ الله ﷻ هو الذي يتوفَّاهم؛ لأنَّ بعضهم توهَّمُوا أنهم يموتُون ويحيَون وما يُهلكهم إلا الدهر؛ كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤]. ويستتبع ذلك أنَّ إقرارهم بأنَّه هو الذي يتوفَّاهم يقتضي أن يعبدوه وحده دون ما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فانظر كيف استبانت تلك الأغراض وتمكَّنت في فهم السامع بإظهار الاسم الأجلّ.

٤. عند نفي أمرٍ وقع التلبيس بإثباته:

وهو عكس السابق، إذْ يُلبَّس بإثبات أمرٍ غير كائنٍ، فيقتضي دفع الادِّعاء التأكيد والتقرير، ومما يساعد على ذلك الإظهار في مقام الإضمار.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، أظهر الاسم الجليل والكتابَ في محل الإضمار، ولم يقل: (وما هو منه)، (وما هو من عنده)، وذلك لتهويل ما أقدموا عليه من القول[1]، وتقريرًا وتأكيدًا يكافئ ما أوقعوه من التلبيس بأنَّ ما

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٥٢).

يلوون به ألسنتهم إنما أنزله الله فهو من جملة الكتاب المنزَل، وليس الأمر كذلك؛ فما هو من الكتاب، وما هو من عند الله.

٥. عند إرادة إبراز مزيد عناية بأمرٍ ما:

ومثاله قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣]، وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾، فلم يقل: (ولكنه سلَّم)؛ لقصد زيادة إسناد ذلك إلى الله، وأنه كائنٌ بعنايته، واهتمامًا بهذا الحادث(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ولم يقل: (وهو شديد العقاب)، فإن كان القول من الله تعالى، فليس فيها تصريح بالظاهر في موضع المضمر، إلا بالمعنى الذي يقتضي أن يكون كلُّ وحي من الله عن نفسه بصيغة التكلّم، فيكون فيه بهذا الاعتبار إظهارٌ على طريقة الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة أوجبه رفع اللبس حتى لا يعود الضمير إلى الشيطان الرجيم.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/ ٢٤).

وإن كانت الجملة من تمام حكاية كلام الشيطان؛ ففيها تصريحٌ بالاسم الأجلّ في موضع الضمير، وكان حقّ الكلام حينئذ: (وهو شديد العقاب)؛ ولكنّه صرّح بالاسم الأجل تحقيقًا وتأكيدًا؛ لأن المقامَ مقامُ تنصُّلٍ وتعليلٍ لنكوصه، وإبراز الاسم الأجلّ أبينُ لعُذر الشيطان في نكوصه وأظهرُ لعجزه، وأنَّه لم يكن ليستطيع أن يفعل ما وَعدهم به من الإجارة، والحال أنَّ الله شديد العقاب، فكان ذكر الألوهية إشعارًا بعلّة نكوص الشيطان تعنّى إظهارها صادقًا وهو كذوب. فاقتضى الأمر التمكين بإظهار الاسم الأجلّ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۖ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩- ٢٠] فيه تصريح بالاسم الظاهر في موضع الضمير مرتين، فلم يقل: (ثم يُنشِئ)، أو: (ثم هو يُنشِئ)، ولم يقل: (إنَّه على كلّ شيء قدير)؛ زيادة في التمكُّن؛ لخطورة القضية التي سيق لها الكلام، وهي قضية تأكيد البعث.

ووضّحه الزمخشري توضيحًا حسنًا، فقال: «فإن قلت: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بعد إضماره في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم يُنشئ النشأة الآخرة؟ قلت: الكلام معهم كان واقعًا في الإعادة، وفيها كانت تَصطكُّ الرُّكَب، فلما قرّرهم في الإبداء بأنه من الله؛ احتجَّ عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل

الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة، فكأنّه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ»[(١)].

كذلك أفاد ذلك تفخيم أمر الإعادة، وتأكيد الإنباء بوقوعها لا محالة، إِذْ كانت هي المنكَرَة عندهم؛ ولذا أظهر الاسم الأجلَّ في ذكرها[(٢)].

كذلك أفاد الإظهار في موضع الإضمار تمكين استقلال الجملة؛ حتى تكون عنوان اعتقاد بمنزلة المثل، وتعليلًا للقدرة؛ لأن في اسم الجلالة إحضارًا لجميع الصفات الذاتية التي بها التكوين[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ٧]، أكَّد الأخبار بإظهار اسم الله الأجلّ في كلّ خبر؛ لتقوية رجائهم بتبديل الأحوال، وتصريف قلوب أعدائهم إلى الإيمان، لتنقلب عداوتهم مودة. ولمّا كان هذا الأمر مظنّة الاستبعاد من بعضهم؛ لِما يرى من

(١) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٤٤٩)، وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٧/ ٣٥).

(٢) انظر: أنموذج جليل، لأبي عبد الله الرازي، ص٣٩٣، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة، ليحيى العلوي (٢/ ١٤٨).

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٠/ ٢٣١).

شدّة عداوة الكفّار ومحادّتهم لله ورسوله؛ أكّده بقوله: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾، مظهرًا الاسم الأجلّ؛ تعظيمًا وإشعارًا بعلّة الوصف والحكم، وإمعانًا في تقوية رجائهم بإيمان صناديد الكفر وأئمته. فإذا سلَّموا بالقدرة الإلهية على تقليب قلوبهم فقد يتساءل متسائل: وهل يُقبل منهم بعد ما فعلوه في المؤمنين والمؤمنات وما كبّدوهم إياه؟ فيأتي الجواب مقرِّرًا مؤكِّدًا: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، مع ما فيه من وصل الإمعان بتقوية رجائهم، مرة بالتعبير باللفظ المرجّي (عسى)، ومرّة بذِكْر القدرة، ومرة بذِكْر المغفرة والرحمة.

فانظر كيف نُظمت الآية على مقتضى ما يُثيره الخبر الأول منتقلًا منه إلى الخبر الثاني فالثالث، بالتدرُّج الذي لا بد أنَّه يقع في نفس السامع المتدبِّر لهذا الكلام. والله أعلم.

٦. للتأكيد على إيقاعه ظاهرًا في الحكاية:

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣]، إذ كان مقتضى الظاهر أن يقول: (أنه بريء من المشركين ورسوله)، ولكن صرّح في الموضعين بالاسمين الظاهرين لزيادة التمكُّن؛ لأنه يقع من مقول المُؤَذِّن مصرَّحًا فيه بالاسمين الظاهرين. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١- ٢]، فيه تصريح بالاسم الظاهر في موضع الضمير، ولم يقل: (هو الصمد)، مع أنه

مقتضى الظاهر؛ وذلك لزيادة التمكُّن، ولكون المقام مقام تعظيم، ولأنَّ الجملة جاءت غير معطوفة، والضمير أوقع لو كان ثَمَّ عطفٌ، أمّا مع عدم العطف فالتعبير بالاسم الظاهر أوقع.

ولم يعطف لتعدُّد الخبر، والخبر المتعدّد يجوز عطفه وفصله، وإنما فُصل ههنا؛ لأنّ هذه الجملة مسوقة لتلقين السامعين، فكانت جديرة بأن تكون كلُّ جملة مستقلةً بذاتها غير ملحقة بالتي قبلها بالعطف، على طريقة إلقاء المسائل على المتعلم نحو أن يقول: التجويد حلية التلاوة، التجويد تحقيق مخارج الحروف وصفاتها[(١)].

ويؤيّده ما قيل في سبب نزول السورة الكريمة أنَّ المشركين أو اليهود سألوا النبي ﷺ، فقالوا: صِف لنا ربَّك، أو انسب لنا ربَّك، ومن أيّ شيء هو؟ فنزلت السورة الكريمة تعليمًا لهم وتلقينًا[(٢)].

٧. عند إرادة تأكيد الخبر بما أُكِّدَ به نظيره أو ضدّه:

وذلك بأن تكون جملتان كلٌّ منهما تنبئ بأحد خبرين يحمل شطر قضية، وقد يبدوان في الظاهر متضادين، ولكن بوضعهما بإزاء بعضهما تكتمل الصورة،

---

(١) انظر: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١/ ٧١٣)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ٦١٧).

(٢) انظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٧٢٧- ٧٢٩).

فمن تمام الموازنة أن يسند كلّ حُكم منهما إلى الاسم الظاهر، فيقع كلاهما مؤكَّدًا.

ومن أمثلة ذلك تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، أظهر أولًا في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ لطول الفصل، فقد قال قبل: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٥]، وهذا بعيد شيئًا ما، فحسن الإظهار، وكذا لو أضمر لتوُهِّم عود الضمير على الكتاب على طريق المجاز، فهو أقرب مذكور.

وكذا حسن الإظهار في هذا الموضع لتربية المهابة، وإدخال الروعة(١).

وأمّا الإظهار في الموضع الثاني: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[البقرة: ٢٣٥]، فلتقوية رجاء مَن أخطأ ثم تاب وأناب، وليتكافأ الخبران عن الله ﷻ: ما دلَّ على شدة مؤاخذته للعاصي، وما دلَّ على سعة مغفرته وحلمه، فلا يغترّ عاصٍ، ولا يقنط تائب. والله أعلم.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[آل عمران: ٣٠]، فلم يقل: (وهو رؤوف بالعباد)؛ وذلك ليقوِّي الرجاء، كما شدَّد التحذير بالتصريح بالاسم الظاهر.

---

(١) إرشاد العقل السليم؛ لأبي السعود (١/ ٢٣٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وسيجري الشاكرين)؛ ليتوازن الخبران عن المنقلبين على أعقابهم والشاكرين، وفيه كذلك إبراز مزيد الاعتناء بشأن الشاكرين وبجزائهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ولم يقل: (وأنه غفور رحيم)؛ ليتوازن الحكمان، ويتكاملَا في الإخبار عن قدرة الله ورحمته. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١-٨٢]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (إنه لا يُصلِح عمل المفسدين)؛ لتربية المهابة وإلقاء الروع في قلوب المفسدين، ولتعليل الحُكم ببطلان السحر، فمن مقتضيات الإلهية ألا يُصلح عمل المفسدين، والسحرة أئمة المفسدين في الأرض.

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٩٤).

ثم أظهر في موضع الإضمار مرّة أخرى، فلم يقل: (ويحقّ الحقّ) لتعظيم الحقّ، وتعظيم شأن إظهاره، وإمعانًا في التعليل، ولتتكافأ الجملتان المخبرتان بمصير الفساد وبمصير الحقّ، ولتستقلّ كلّ منهما بحكمها. ومما يؤكّد إرادة نظمهما على رسم الاستقلال مكان الفاصلة بعد الجملة الأولى. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، فأظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وإنه لشديد العقاب)؛ ليتكافأ الخبران، ويتعادلَا ويتكاملَا. ويصحُّ أن يكون الإظهار في موضع الإضمار تربيةً للمهابة، وتوكيدًا لشدّة العقاب بعد ذكر المغفرة لهم مع ظلمهم؛ لئلا يغتروا بإمهال الله تعالى لهم. والله أعلم.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ففيه إظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: (ويضلّ الظالمين ويفعل ما يشاء)؛ بل كرَّر الاسم الأجل في كلِّ جملة؛ تعظيمًا[١]، ولتستقلَّ الجُمَل، ويتمكّن إجراؤُها مجرى الأمثال[٢]، ولتقرير القطع بحُكْم الله في التثبيت والإضلال وجريان فعله على مقتضى مشيئته، ولتعليل الحُكم؛ إِذْ إنَّ هذه الأحكام الدالة على حكمته

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٥/ ٤٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣/ ٢٢٧).

وقدرته وعزته من مقتضيات ألوهيته، ولتتوازن الجُمَل وتتكامل لبيان قدرة الله تعالى التامَّة[1]. وفيه مع ذلك تقوية الرجاء بالأول وتربية المهابة بالثاني والثالث. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، صدَّر الجملتين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾، ولم يضمر في الثانية؛ وذلك لتتوازن الجملتان، ويتكامل الحكمان بالإخبار عن دفاعه ﷻ عن الذين آمنوا، وسخطه على الخوّانين الكفرة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢- ٧٣].

فأظهر الاسم الأجلَّ على طريقة الالتفات، ولم يقل لنعذِّبَ، وأعاد الاسم الأجلّ ولم يقل: (ويتوب على المؤمنين) بالإضمار على مقتضى الظاهر؛ وذلك لتتوازن الجملتان، وليتكافأ الحكمان، وليتكامل بهما بيان قدرة الله تعالى.

(١) انظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٨/ ٤٠٢٤).

قال أبو السعود: «والالتفات إلى الاسم الجليل أولًا لتهويل الخطب وتربية المهابة، والإظهار في موقع الإضمار ثانيًا لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفيةً لكلٍّ من مقامي الوعيد والوعد حقَّه. والله تعالى أعلم»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فأظهر الاسم الأجلَّ، ولم يقل: (وهو الغني الحميد)؛ للتعظيم، وزيادة التمكين بالتأكيد، إِذْ لو أضمر لقال: (وهو الغني الحميد) فلم يأت بضمير الفصل، إلا أن يقول: (وهو هو الغني الحميد)، وليس في التوكيد اللفظي بالضميرين ما في التوكيد بالاسم الظاهر وضمير الفصل. فتأمّل!

كذلك؛ فإنَّ التصريح بالاسم الظاهر مكَّن استقلال الجملتين، فحسنتا في الازدواج، وهيأت تسيير التذييل مسير المثل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ [الزمر: ٣٦- ٣٧].

لم يقل: (ومن يضلل)؛ لزيادة التمكّن، وتعليل الحكم؛ إِذْ مقتضى الإلهية الحكمة والقدرة بما يستتبع نفاذ الحكم، وتربية المهابة.

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٧/ ١١٩).

ولم يقل: (ومن يهد)؛ لتتوازن الجملتان، ويتكافأ الخبران عن الله تعالى، وفي مجموعهما بيان كمال القدرة، ولتتوطّأ كلٌّ منهما للمسير سير المثل، وللإشعار بعلة الحكم.

ولم يقل: (أليس هو بعزيز ذي انتقام؟)؛ للتعظيم والتأكيد والتقرير، ولتنفصل الجمل، ولتربية المهابة، ولتعليل الوصف.

الغرض الثالث: الإشعار بعلّة الحكم:

والمراد بالإشعار بعلّة الحكم أو الوصف، أو الإشعار بالعِلِّيَّة: أنَّ التعبير بالاسم الظاهر يُفيد ما حَكَم به، أو حُكِم له به، وحُكِم عليه به، والضمير لا يفيد ذلك.

فقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[البقرة: ٥٩]، فيه إظهار الاسم الموصول في موضع الضمير، فلم يقل: (فأنزلنا عليهم رجزًا)، إذْ تقدَّم ذكرهم قريبًا، وذلك للإشعار بعلّة ما أنزله الله ﷻ بهم من العذاب، فإنما كان ذلك لأنهم ظلموا، وهو ما توصَّل إلى تقريره بالموصول وصلته، وما كان هذا ليُستفاد من الإضمار.

فإذا انتقلنا إلى الأسماء الحسنى، فإنها أوصافٌ لها مدلولاتٌ معيّنةٌ، فإذا عُبِّر بالاسم الأجلّ في مقام يقتضي الإضمار كان فيه إشعارٌ بأنَّ الإلهية الحقّة تقتضي ما حكم به سبحانه، وإذا عُبِّر باسم الربِّ في مقام يقتضي الإضمار كان فيه إشعار بأنَّ الربوبية تستتبع هذا الحكم وتقتضيه.

فإنَّ اسم الجلالة أصله الإله، أي الإله العَلَم الواحد الذي لا إله غيره، فاشتقاقه مشير إلى أن مُسمَّاه يجمع كلَّ الصفات العُلى؛ تقريرًا لما يقتضيه السياق منها، لا سيما إذا اقتضى السياق أكثر من صفة من صفات ذاته وأفعاله.

فإذا تأملت ذلك اتضح لك سبب كون هذا الغرض من أكثر أغراض إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار.

وغالبًا ما يكون الاسم المصرَّح به في موضع الضمير هو اسم الجلالة (الله)، يليه في تواتر الورود اسم (الربّ)، وغالبًا ما يكون مضافًا لضمير المخاطَب الذي هو الرسول ﷺ.

وإفادة التصريح باسم الله أو الربّ في موضع الضمير إنما كانت لأنَّ اسم (الله) دالٌّ على جميع الأسماء الحُسنى والصفات العُلى، فهو دالٌّ على إلهيته المتضمّنة لثبوت صفات الإلهية له، وهي صفات الكمال والجلال، وصفات الذات والأفعال، مع نفي أضدادها عنه(١).

فالاسم الأجلُّ (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتقّ منها اسم (الله). واسم (الله) دالّ على كونه مألوهًا معبودًا، تَأْلَهُه الخلائق محبةً

(١) انظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، للدكتور/ محمد النجدي، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، ط٥، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م، ص٤٩.

وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنتين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزمة لجميع صفات كماله، إِذْ يستحيل ثبوت ذلك لِمَن ليس بحيٍّ ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلّم، ولا فعّال لِمَا يريد، ولا حكيم في أفعاله.

فصفات الجلال والجمال أخصّ باسم (الله). وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالنفع والضرّ والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة= أخصّ باسم (الربّ).

وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والرأفة واللطف= أخصّ باسم (الرحمن)[1].

فإذا صُرِّح باسم (الله) أو (الربّ) أو (الرحمن) في موضع الضمير؛ فهو كالتعليل لما أُسنِد إليه من الفعل الراجع إلى صفة من صفات جلاله وجماله وقدرته وإحسانه ورحمته... إلخ.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٥٠).

[البقرة: ٨٠]، أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: (فلن يُخلف عهده)؛ للإشعار بعلَّة الحُكم، فإن عدم الإخلاف من مقتضيات الألوهية(١)، ولم يقل: (أم تقولون عليه)، للإشعار بجراءتهم البالغة في ادّعائهم هذا، ولبيان قبح فعلهم وتفظيع أمرهم إِذْ قالوا على الله ما لا يعلمون، والتصريح بالاسم الظاهر في مثل هذا أبينُ في تصوير ما ارتكبوه من الهول، وما أقدموا عليه من الجناية العظيمة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، أظهر في موضع الإضمار، فأعاد الاسم الأجلَّ تقوية للرجاء بتحقيق البشرى بمجيء الأمر وحصول الفَرَج، وإشعارًا بعلّة الحُكم باستحضار ما يدلّ عليه هذا الاسم الأعظم من صفات القدرة المطلقة(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فيه إظهار في مقام الإضمار، فلم يقل: (إنه بالناسِ لرؤوفٌ رحيمٌ)؛ لأنَّ من مقتضيات ألوهيته سبحانه أن يكون بالناس رؤوفًا رحيمًا، كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فكان التصريح بالاسم الأجلِّ كالتعليل لحكمته في قضائه ﷻ بكتابته أجرهم كاملًا؛ لأنهم صلَّوْا قبل تحويل القِبلة إلى قِبلة سبق في علمه سبحانه أنَّها ستُنسخ وأنَّ مَن بقي منهم

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ١٢١).

(٢) وانظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (٢/ ١٠٧).

سيؤمر بالتحوُّل عنها، ولكنَّه تعبَّدهم بالصلاة إليها، ثم تعبَّدهم بالتحوُّل عنها بعد ذلك، فكانوا في كلٍّ مطيعين مستسلمين.

كذلك؛ فإنَّ فيه تقويةً لرجائهم بكتابة أجرهم كاملًا، فالله سبحانه إذا وعد فهو أحقُّ مَن وَعَد بالوفاء وأقدره على ذلك.

ومثال ما تقدَّم قولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧]، فأظهر ولم يقل: (فإنه لرؤوف رحيم)، فكان التصريح باسم الربِّ كالتعليل لرأفته ورحمته، وفيه كذلك تقوية لرجائهم فيما وُعدوا من الرحمة. وإضافة الربّ إلى ضمير المخاطبين إشعارٌ بكِلاءته وقيّوميته وتكريمه ﷻ للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وفيه إظهار في مقام الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل: (إنك لا تخلف الميعاد) كما يقتضيه الظاهر؛ وذلك لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ مِن ذِكر اليوم المهيب الهائل، ولم يخرج على هذه الصورة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فإنه مقام طلب إنجاز الوعد بالإنعام، كذلك فإنّ التصريح

بالاسم الأجلّ فيه إشعار بعلّة الحكم؛ فإنّ الألوهية منافية للإخلاف. وقد جُوِّز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين[1].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ولم يقل: (وعليه فليتوكَّل المؤمنون)؛ للتعليل، فالألوهية من موجبات التوكُّل عليه[2]، وللتعظيم، ولتقوية الرجاء، ولزيادة التمكُّن، ولتأكيد استقلال الجملتين فتتهيأ الثانية لتسير مسير المثل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، صرّح بالاسم الأجلّ، ولم يقل: (ومن يغفر الذنوب إلا هو)؛ للتعظيم، وزيادة التمكن، وللتعليل؛ فإنَّ مغفرة الذنوب من آثار رحمته، ورحمته من صفات إلهيته، ولتستقل الجملة المعترضة، فيمكن إجراؤها مجرى المثل.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٩).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٧٩).

ولم يقل: (فتوكَّل عليه إنه يحب المتوكّلين)، ووضع الاسم الظاهر، موضع الضمير في الموضع الأول منهما؛ نظرًا إلى أنَّ اسم الجلالة يجمع كلّ صفات كمال الله ﷻ، باعتباره اسمًا عَلَمًا للذات العَليّة، وما هو اسم عَلَم للذات يكون جامعًا لكل صفات الكمال(١).

والإظهار في الموضع الثاني لتقوية الرجاء، وتوطئة استقلال الجملتين، فيحسن إخراج التذييل مخرج المثل.

وذَكر الشيخ الميداني إدخال الرَّوعِ غرضًا من أغراض التصريح بالاسم الظاهر في مقام الإضمار في هذا الموضع(٢)، ولستُ أتّفق معه في ذلك، فالمقام بتقوية الرجاء أشبهُ. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فأظهر الاسم الأجلَّ في موضع الضمير، ولم يقل: (وما كان ليطلعكم)، وكذا لم يقل: (ولكنه يجتبي)، وكذا: (فآمنوا به وبرسله)؛ فإظهار الاسم الأجلِّ فيها للتعظيم، وفي الموضع الأول للتعليل، وكذا كلُّ ما جرى

(١) انظر: البلاغة العربية، للميداني، دار القلم (دمشق)، الدار الشامية (بيروت)، ط١، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م، (١/ ٥٠٦).

(٢) البلاغة العربية، للميداني (١/ ٥٠٦).

مجراه مما فيه: (وما كان الله ليفعلَ كذا)، فهو مثال صالحٌ للتنبيه على علّة الحُكم، فالله ﷻ لكونه وحده المتّصف بصفات الجلال والكمال ما كان ليفعل هذا، أو ما كان ليفعله إلا على هذه الصفة، فإنما كان ذلك كذلك؛ لأنَّه مقتضى أسمائه الحسنى، وصفاته العلى. والله أعلم.

وهذا -ولله المثل الأعلى- كما لو نما إلى علمِ السلطان ما يتقوّله بعض الناس عليه أنَّه يفعل أمرًا خسيسًا دنيئًا، فيقول مُنكِرًا: السلطان يفعل كذا؟! يعني لا ينبغي لمن كان سلطانًا أن يفعل هذا الأمر، وذلك يدلُّ بداهة على أمرين: عظمة هذا السلطان، والإشعار بعلّة الامتناع، وذلك أنَّه سلطان لا ينبغي لمن كانت تلك صفته أن يفعل ما أُنكر عليه.

ومن أغراضه في الموضع الثاني التعظيم والتفخيم، والتعليل كذلك؛ فلأنه المتّصف بصفات الإلهية يجتبي من رسله من يشاء.

ومن أغراضه في الموضع الثالث تقوية داعي المأمور، وتربية المهابة. والله أعلم.

ومن الأمثلة القريبة من هذا المثال قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣].

ولم يقل: (وما كان معذِّبَهم)؛ للتعظيم والتفخيم، ولزيادة التمكُّن، ولتزدوج الجملتان، ولتستقلّ الثانية منهما، فتجري كلٌّ منهما مجرى المثل.

وفوق هذا، فإنَّ التصريح بالاسم الأجلّ في موضع الضمير إشعار بعلّة هذا الحُكم الإلهي والسُّنة الماضية: أنَّ من مقتضيات إلهيته أنه لا يعذبهم وهم يستغفرونه، وهكذا مَن كان حكيمًا رحيمًا رؤوفًا، وهو ﷻ وحده المتفرد بكلّ هذا. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؛ صرّح فيه بالاسم الظاهر في موضع الضمير على طريقة الالتفات، فلم يقل: (وما كنّا لنظلمهم)، إشعارًا بعلّة الحكم؛ كما تقول: (وما كان القاضي العادل ليظلم)، فإن كان القاضي المشهور بالعدل لا يتأتى منه الظلم؛ فالله المتفرّد بصفات الكمال والجمال والجلال ما كان ليظلم الناس شيئًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، أظهر فيه الاسم الجليل في موضع الإضمار؛ للإشعار بعلّة الحكم، فإن الألوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمال[(١)].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٥٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦]، أظهر فيه الاسم الجليل في موضع الإضمار بطريق الالتفات لتهويل الأمر، وتربية المهابة، وتعليل الحكم؛ فإنّ عنوان الألوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[المائدة: ٣٨]، صرّح بالاسم الظاهر في موضع الضمير، ولم يقل: (وهو عزيز حكيم)؛ لتربية المهابة، والإشعار بعلّة الحكم، إِذْ إنَّ من مقتضيات الألوهية العزة والحكمة. والله أعلم.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٣٩]؛ فأظهر الاسم الجليل في موضع الضمير للإشعار بعلّة الحكم، وتأكيد استقلال الجملة.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[المائدة: ٤٠]، فإن عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتهما(٢).

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٩٢).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٣٤- ٣٥).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، أظهر في موضع الضمير في ثلاثة مواضع، فلم يقل: (يجاهدون في سبيله)، وكذا: (ذلك فضله)، وكذا: (وهو واسع عليم).

ومن أغراضه التعظيم، وتفخيم السبيل بإضافته إلى الاسم الأجلّ، فيَعظُم المجاهدون في سبيله، وكذا تفخيم الفضل بإضافته إلى الاسم الأجلّ، فيقوّي الرجاء في نَيله، وفيه كذلك إشعار بالعلّة، إِذْ إنَّ سعته وعلمه من مقتضيات ألوهيته. وفيه كذلك تقوية استقلال الجملة الاعتراضية[1]، وتوطئة إجراء جملة التذييل مجرى المثل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (وهو مع الصابرين)؛ لتقوية الرجاء، وتوطئة انفصال جملة التذييل، وللإشعار بعلّة الحُكم، فمعيّته الخاصة للصابرين من مقتضيات ألوهيته، وفيه موضع آخر للإشعار بعلّة الحكم، حيث لم يقل: (والله معهم)، إشارة إلى أنَّ نصره لهم إنما كان لكونهم صابرين.

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٥٢).

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[إبراهيم: ١]، فيه إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل: (بإذنِنَا)، ووضع موضع الضمير قوله: ﴿رَبِّهِمۡ﴾؛ للإشعار بالتربية واللطف والفضل، وبأن الهداية لطفٌ محض[(١)].

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٠- ٩٣].

لم يقل: (وما ينبغي له)؛ تعظيمًا، وإشعارًا بعلّة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إمّا نعمة أو مُنعَم عليه، فكيف يتسنى أن يجانس مَن هو مُبدئُ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهّم أن يتخذه ولدًا[(٢)]؟!

ولم يقل: (إلا ءاتيه عبدًا)؛ وذلك تربية للمهابة وإدخال الروع.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، أورد الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، فلم يقل: (فسبحانه) للإشعار بعلِّيّة الحكم، فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله، التي من جملتها تنزهه تعالى عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة[(٣)].

---

(١) انظر: فتوح الغيب، للطيبي (٨/ ٥٤٢).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٥/ ٢٨٣).

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ٦٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[الحج: ٥٢]، أظهر الاسم الأجلَّ في موقع الإضمار للتعظيم، وزيادة التمكُّن والتقرير، والإيذان بأن الألوهية من موجبات أحكام آياته الباهرة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٤- ٧٥]، صرّح بالظاهر في مقام المضمر، فلم يقل: (إنه لقويّ عزيز)؛ تربيةً للمهابة وإدخالًا للروعِ، وإشعارًا بعلّة الوصف، فالإلهية تقتضي القوّة والعزّة. وكذا لم يقل: (هو يصطفي)؛ للتعظيم وتفخيم شأن الرسالة وتعظيم شأن المُصطَفَيْنَ لها، وللإشعار بعلّة الحُكم، فالاصطفاء اختيار القدير الحكيم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته. ولم يقل: (إنه سميع بصير)؛ لتربية المهابة، وتقوية داعي المأمور ضمنًا بطاعة الرسل والاستجابة لهم.

كما أنَّ فيه تقوية استقلال الجمل، وتوطئة جمل التذييل لتسير مسير المثل، والمواعظ والمذكِّرات الجوامع.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]، وكذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩]، أظهر فيها الاسم الأجل في موضع الإضمار للإشعار بعلّة الإلهية واقتضائِها للعلم والحكمة، ولتأكيد استقلال جملة التذييل[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٠]، أظهر فيه الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار لتربية المهابة، والإشعارِ باستتباع صفةِ الأُلوهية للرَّأفة والرَّحمةِ. وتغييرُ سبكِه وتصديرُه بحرفِ التحقيق لبيان اتِّصافِه تعالى في ذاتِه بالرَّأفةِ التي هي كمالُ الرَّحمةِ، والرَّحيميةِ التي هي المبالغةُ فيها على الدَّوامِ والاستمرارِ، لا لتعلُّق رأفتِه ورحمتِه بهم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الضمير في موضعين، فلم يقل: (ويضرب الأمثال)، ولم يقل: (وهو بكلّ شيء عليم)؛ وغرضه في الموضع الأول تعظيم التعليم بضرب الأمثال، وزيادة التمكين والتقرير. وفي الموضع الثاني لتوطئة استقلال الجملة، وللإشارة إلى علّة الحكم؛ ذلك أنَّ من لوازم

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٦٣).

(٢) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٦٤).

الإلهية كمال العلم بكلّ شيءٍ، ومنها علمه بتوقيع الأمثال على المراد من التمثيل من غير اقتضاء للمماثلة التامَّة من كلِّ وجهٍ. والله أعلم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، أظهر الاسم الأجلَّ في مقام الإضمارِ في الموضع الأول؛ لتفخيمِ شأنِ الخلقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه من أحكامِ الأُلوهيَّةِ، وفي الموضع الثاني لتأكيد استقلال الاستئنافِ التعليليِّ[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل: ٦٣]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (تعالى عمّا يشركون)؛ للتعظيم، ولزيادة التمكُّن فتخرج وكادة الخبر على قدر شدّة الاستفهام الاستنكاري، وهذا لا يقوم فيه الضمير مقام الاسم الظاهر.

وهو مع ذلك مُشعرٌ بعلةِ الوصف؛ أي: تعالى الله وتنزَّه بذاتِه المنفردةِ بالأُلوهيةِ المستتبعةِ لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلالِ المقتضيةِ لكونِ كلِّ المخلوقاتِ مقهُورًا تحتَ قُدرتِه[(٣)].

---

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٧٨).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٨٥- ١٨٦).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ٢٩٥).

وفيه أيضًا تربية المهابة، وتوطئة استقلال الجُمل؛ لإجراء الأخيرة مجرى المثل.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، فيه إظهار في مقام الإضمار، ولم يقل: (لا يخلف وعده)؛ إيذانًا بأنَّ من مقتضيات الألوهية صدق الوعد مهما كان، وإن استحال الوفاء بمثله على غيره، لاستحالة الكذب عليه سبحانه(١)، وفيه كذلك تفخيم الوعد بإضافته إلى الاسم الأجلّ، وفيه تمكين استقلال الجملة الثانية، لتجري مجرى المثل.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، أظهر الاسم الأجلَّ فيما يقتضي ظاهره الإضمار، لتقوية داعي المأمور، ولتعليل الحُكم، ولتأكيد استقلال جملة التذييل وإخراجها مخرج المثل(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، صرّح بالاسم الظاهر في موضع الضمير على طريقة الالتفات، فلم يقل: (بإذني)؛ للتعظيم، وتفخيم الإذن بإضافته إلى الاسم الأجلّ، ولتعليل الحكم؛

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٧/ ٥٠).

(٢) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٧/ ١٠٨).

أنهم إنما سبقوا بإذن الله، ولو لم يأذن لهم في طاعته ما سبقوا، فإذنُه من أفعال قدرته وحكمته وعلمه، والإلهية الحقّ تقتضي كلَّ ذلك. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]، أظهر الاسم الأجلَّ في مقام الإضمار، فلم يقل: (ألا إنه هو الغفور الرحيم)؛ وذلك للإشعار بعلّة الحكم، فإنَّ من مقتضيات إلهيته أن يستجيب للمستغفرين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: (حجتهم داحضة عنده)؛ للإشعار بعلّة الحكم؛ إِذْ من مقتضيات ربوبيته قيامه بالقسط، وقدرته على إنفاذ حُكمه وقضائه؛ إِذْ قد يغالِب هؤلاء المجادلون بالباطل أهلَ الحقِّ، فيظهرون عليهم بغير سبيل البرهان القيّم؛ لإجلابهم بخيلهم ورجلهم، أو لأنهم أكثرُ نفيرًا، أو لأنهم المتحكّمون في سَنِّ المعايير الحاكمة، أو لأنَّ الذي يجادلهم -وإن كان من أهل الحقّ- فإنَّه غير قَيِّم بالحُجَّة؛ لضعفٍ في علمه أو فهمه أو في ملَكة الحوار والمجادلة لديه. فهؤلاء -وإن ظهرت حجّتهم بعض الظهور عند الناس من الغوغاء والحمقى والمخدوعين- فإنَّها داحضة عند مَن قام في ملكوته بالقسط، وأنزل الكتابَ بالحقّ والميزانَ.

وكذا؛ فإنّ في التصريح بالاسم الظاهر تربية للمهابة، وتقوية لوازع المنهيِّ عن المجادلة بالباطل؛ لينال بها نصرًا صغيرًا يعقبه ندمٌ طويل.

وكذا في التصريح باسم الربّ مضافًا إلى ضميرهم؛ حطًّا عليهم وذمًّا بما يقابلون به إنعامه عليهم، وإحسانه إليهم من المجادلة بالباطل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣- ٦].

وإيراد لفظ الربّ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ إظهار في مقام الإضمار على طريقة الالتفات من التكلُّم للغيبة؛ لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: (رحمة منّا). وفيه إشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين، ثم بيَّن أن تلك الرحمة وقعَت على وَفْق حاجات المحتاجين؛ لأنه تعالى يسمع تضرّعاتهم، ويعلم أنواع حاجاتهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]. وإضافة (ربّ) إلى ضمير الرسول ﷺ صرف للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النبي ﷺ بالخطاب؛ لأنه ﷺ قد جرى خطابهم بواسطته، فهو كحاضر معهم عند توجيه الخطاب إليهم، فصرف وجه الكلام إليه لقصد التنويه بشأنه بعد التنويه بشأن الكتاب الذي جاء به.

وإضافة الربّ إلى ضمير الرسول ﷺ إيماءٌ إلى أنَّ هذا الكتاب، وما به من تشريعات سامية كلّه من ربّه وبواسطة النبي ﷺ، فإذا كان الإرسال رحمةً كان

(١) انظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٢٧١)، والتفسير الكبير، للرازي (٢٧/ ٦٥٤).

هو ﷺ رحمة، وإذ عُلِم كونه ربّ الرسول ﷺ عُلِم أنه ربّ الناس كلِّهم؛ إذ لا يكون الربُّ ربَّ بعض الناس دون بعض، فأغنى عن أن يقول: (رحمة من ربك وربهم)؛ لأن غرض إضافة رب إلى ضمير الرسول ﷺ يأبى ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٨]؛ أظهر اسم الرب في موقع الإضمار مضافًا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل[2]، وللتأنيس.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، فيه تصريح بالاسم الظاهر في موضع الضمير، فلم يقل: (وهو يسمع تحاوركما)، ولم يقل: (إنه سميع بصير). وفيه زيادة تمكين وتقرير، وفيه تعظيم لأمر المجادِلة، وفي الثاني تعليل للحكم؛ إِذْ من مقتضيات الألوهية أن يكون سميعًا بصيرًا، وفيه كذلك تقوية الرجاء، وتربية المهابة، وتأكيد استقلال الجملتين[3].

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وهو عليم)؛

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٥/ ٢٨٢).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٨/ ١٤٨).

(٣) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٨/ ٢١٦).

وذلك تعليلًا لدقّة علمه وإحاطته التامَّة بما في الصدور، فإنّ ذلك من مقتضى ألوهيته ﷻ[1].

وفيه كذلك تأكيد استقلال جملة التذييل لتجري مجرى المَثَل، كما أن فيه تربية للمهابة، وتربية للتقوى المستفاد الأمر بها ضمنًا من الإخبار بعلم الله تعالى للسر والعلانية. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾[التغابن: ٦]، فيه التصريح بالاسم الظاهر فلم يقل: (وهو غني حميد)، إشارة إلى علّة الحكم، مع ما فيه من زيادة التمكين، وتأكيد استقلال الجملتين، وإجراء التذييل مجرى المثل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، فصرّح بالاسم الظاهر بدل الضمير على طريقة الالتفات، وكان مقتضى الظاهر: (كذلك نُضِل مَن نشاءُ ونَهدِي مَن نشاءُ، وما يعلمُ جنودَنا إلا نحنُ). وذلك أنهم سألوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ

(١) وانظر: نظم الدرر، للبقاعي (٢٠/ ١١٠).

﴿بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فكان في التصريح بالاسم الأجلّ في الردّ عليهم زيادة تمكُّن، وتعظيم، مع ما فيه من تنبيه على علّة الحكم، فإنَّ مِن مقتضيات الإلهية الحكمة والقدرة، فبهما يقدر على وضع الشيء موضعه.

وفي قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، تعظيم، وتمكين، وتقوية رجائه وتطمينه بحتمية النصر، بإضافة الجنود إلى الرب المضاف إلى ضمير المتكلّم، فكأنّ هذه الجنود من وظيفتها أنَّها تُبعَث في نصر هذا المربوب المقرّ له بالربوبية. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٦- ٣٨]، فيه إظهار في موضع الإضمار إِذْ صرَّح باسم الرحمن، قال أبو السعود: «وإظهارُ [اسم] الرحمنِ في موضعِ الإضمارِ للإيذانِ بأنَّ مناطَ الإذن هو الرحمةُ البالغةُ، لا أنَّ أحدًا يستحقُّه عليهِ سبحانَه وتعالى»[(١)].

الغرض الرابع: الإشارة إلى استقلال الجُمَل:

تقدَّم أنَّ الإظهار في مقام الإضمار يكون أيسرَ ما كان في جملتين. قال البطليوسي: «وقد تُكرِّر العربُ ذِكر الاسم على غير وجه الإشارة والاستطابة، ولكن لضربٍ من المبالغة، أو على وجه الضرورة، فإذا كان ذلك في

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٩/ ٩٤).

جملتين حسن الإظهار والإضمار؛ لأنّ كلّ جملة تقوم بنفسها، كقولك: جاءني زيد، وزيد رجل فاضل. وإن شئت قلت: وهو رجل فاضل»[(١)].

فالإظهار يُقدَّم على الإضمار في هذه الحالة؛ لزيادة التنويه بكلّ جملة منها حتى تكون مستقلّة الدلالة، غير محتاجة إلى غيرها المشتمل على مرجع ضميرها، حتى إذا سمع السامع كلّ واحدة منها حصل له علم مُستقلٌّ، وقد لا يسمع أُولاها فلا يضرّه ذلك في فهم أُخراها[(٢)].

ويَحْسُن هذا للأمور الآتية:

الأول: لتأكيد استئناف معنًى جديد:

مثاله قول الله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]؛ قال أبو السعود: «وتصديرُ الجملتين بالاسم الجليل للإيذان بفخامة مضمونَيْهما، وكونِ كلٍّ منهما مستقلةً بشأنها، فإنّ الإضمارَ في الثانية مُنبئ عن توقُّفِها على الأولى»[(٣)].

(١) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي (٣/ ١٩٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ١١٨).

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ١٤٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، ولم يقل: (وهو يُعَلِّمُكم) أو نحو ذلك، كأنَّه أراد أمرًا جديدًا: أنّ هذه الآية من العلم الذي يجدر أن تأخذوا به، فهو مما يُعَلِّمُكم الله، وأشار بعطفها على الجملة السابقة إلى أنَّ التقوى تفتح للمرء مغاليق العلم والفقه. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، ولم يقل: (وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ)؛ لتعظيم العليم، وتفخيم العلم، وتشريف العلماء، ولتعليل الجملة السابقة، فهو العليم يُعلِّمهم ما يصلحهم، وهو العليم كيف يعلّمهم. ثم يمكن أن يردّ معنى جملة التذييل على الأمر بالتقوى؛ كأنه قال: والله عليم بأعمالكم ونيّاتكم مُجازيكم عليها إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشرّ، فيكون من أغراض الإظهار تربية المهابة وتقوية داعي المأمور، مع ما في ذلك من تأكيد استقلال الجُمَل، وتهيئة كلّ منها لتسير مسير المثل. والله أعلم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وهو بما تعملون بصير)؛ لاستقلال الثانية إِذْ نوّهت بمعنًى جديد؛

(١) وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢/ ٣٥١)، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ٢٧١)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ١١٨).

كأنه لمّا ذكر الموت ذكر الرجوع إلى الله، فذكر بصره بعملهم فيجازيهم عليه. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، أظهر فيه الاسم الأجلَّ في موقع الإضمار؛ لتربية المهابة، والإشعار بمناط الحكم؛ فإنّ شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية، مع ما فيه من الإشعار باستقلال كلّ من الجملتين بالتقرير[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، فيه إظهار في مقام الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل مثلًا: (وقلنا إنّا معكم)، كما يقتضي ظاهر النَّظْم، وفي الإظهار مع الالتفات إشعار باستقلال القضيتَيْن، واستئناف الكلام، مع ما في إظهار الاسم الأجلّ من تربية للمهابة، وتقوية لداعي المأمور. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار فلم يقل: (وهو على كلّ شيء قدير)؛ للتعليل، إِذْ من مقتضيات الألوهية شمول قدرته وإنفاذ إرادته، وفيه كذلك تقويةُ استقلال الجملة[(٢)].

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٧).

(٢) وانظر: إرشاد العقل السليم، لابي السعود (٣/ ٢٠).

ولعلّ مما يرشّح إرادة استقلال الجملة توسُّط قوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، بالإضمار بينهما، فوقع الإظهار قبل الإضمار وبعده. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[التوبة: ٥٩]، قوله: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾، ليس من الإظهار في موضع الإضمار؛ لأنه بداية الكلام المحكيّ، ولم يتقدّمه في الحكاية ما يصلح مرجعًا للمضمر، ثم أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (سيؤتينا من فضله)؛ للتعظيم، ولتقوية الرجاء، ولزيادة التمكن بتوطئة عطف المظهر على المظهر في قوله: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾. ثم أظهر مرة أخرى في موضع الإضمار، فلم يقل: (إنّا إليه راغبون)؛ لرفع أيّ توهُّم لعود الضمير على الرسول ﷺ، ولتقوية الرجاء، وللتعظيم، ولتفخيم الرغبة فيما عنده سبحانه.

ثم أفاد تكرارُ إظهار الاسم الأجلّ في مواضع الإضمار الإشعارَ باستقلال الجُمَل نوع استقلال، فهي أقوال نُدِبوا إلى قولها؛ إعلانًا لصدق إيمانهم ونقاء سرائرهم، وكلٌّ منها إن قيل فإنه يصلح بمفرده للتعبير عن ذلك، وإن كان كمال الكشف عنه في إعلانها مجتمعة. وهي مُرتبة في الدلالة، فأعلاها ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾، وهي القضية الرئيسة، والجملتان الآتيتان كالشرح لها، فلذلك لم يتعاطفا؛ لأنهما كالشيء الواحد، فشِدَّة الاتصال منعَت العطف[1]، ولعلَّ أعلاهما ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ﴾

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان (٥/ ٣٢٦)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/ ٢٣٤)، والتفسير المنير، للزحيلي (١٠/ ٢٥٧- ٢٥٨).

على الجزم والتحقيق، ثم ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، والرغبة ليست كالجزم. فإن لم يقولوا الأُولى فليقولوا الثانية، فإن لم يقولوا الثانية فليقولوا الثالثة، فكأنّ هذه الأقوال طُلبت منهم على طريقة التدلّي، فإن لم يقل الأولى فهلّا قال الثانية؟ فإن لم يقل الثانية فهلّا قال الثالثة؟ فإن جمعها فهو خير. والله أعلم.

وفي تكرار الاسم الأجلِّ تربيةٌ على الاستئناس والالتذاذ بذِكْره ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، فيه إظهار في مقام الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل: (ثم نحنُ شهداءُ على مَا يَفعلون)، لعدم جريانه على نسق التعبير القرآني، والظاهر اعتباره غرضًا من أغراض الإظهار في موضع الإضمار. وفيه أيضًا تربية للمهابة وإدخال الروع.

واختلفوا في (ثُمَّ) هل هي على أصلها في العطف، أم هي للتراخي الرُّتبي؛ فإن كانت على ظاهرها وجب تأويل الشهادة بالمعاقبة أو بتحقيق الشهادة بإنطاق الشهداء كالجوارح وغيرها، فيكون المعنى: ثم إلينا مرجعهم فنعاقبهم بمقتضى شهادتنا عليهم، أو فنُنطق الشهداء بما فعل هؤلاء. وذلك أنَّ الله شهيد على ما يفعلون في كلِّ وقتٍ.

وإن كانت للتراخي الرُّتبي كان المعنى: ومع ذلك؛ فإنَّ الله تعالى رقيبٌ عليهم.

ويُرجّح أنها للتراخي الرُّتبي على خلاف الظاهر خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بإقامة لفظ الجلالة مقام الضمير مع الالتفات، فلم يقل: (فإلينا مَرجعُهم ثم نحن شهداءُ على ما يفعلون)، فكان أفضل تنبيه على انفصال الجملتين، فالثانية مستأنفة لا معطوفة. وهذا ضربٌ من ضروب الائتلاف القرآني.

وفائدة الاستئناف التنبيه على أنَّ إمهال الله تعالى ليس غفلة عنهم، ومعاقبته لهم ليست ظلمًا لهم، فهو مع إمهاله رقيبٌ عليهم شهيدٌ على ما يفعلون، وهو في تعجيل بعض العقوبة لهم يحكم فيهم بمقتضى رقابته عليهم مع حكمته في تصريف الآياتِ والنُّذُر. ولمّا كان هذا راجعًا إلى مجموع صفات ألوهيته من الشهادة والرقابة والعلم والحكمة والقدرة وغير ذلك حَسُن التعبير بالاسم الأجلّ (الله) وحَسُن الالتفات؛ ليقع ما أراده من التنبيه موقعه. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[التغابن: ١٣]، لمّا ذكر شعار وحدانيته سبحانه وتعالى، وهو مُقتضٍ لقهره الأضداد؛ أوغل في بيان أنه وحده الحقيق أن يُتَوكَّل عليه، فاقتضى التصريح بالاسم الظاهر وتقديم الجار والمجرور لإفادة القصر، أي: وعلى الله -وعليه وحده- فليتوكل المؤمنون.

وأفاد استقلال الجُمَل صلاحيتها للسّير مسير المثل، كما أفاد التصريح بالظاهر موضع المضمر تعظيم الوكيل ﷻ، وتفخيم التوكُّل عليه، وتشريف المتوكِّلين عليه، وكذا أشعر «بعلة التوكّلِ والأمرِ به فإنّ الألوهية مقتضيةٌ للتبتلِ إليه تعالى بالكلية، وقطعِ التعلّقِ عما سواه بالمرّة»[1].

الثاني: لردّ التذييل على السياق كلّه:

قد يراد للجملة التذييلية أن تكون مردودة على السياق كلّه؛ لا على آخر المعاني القريبة المذكورة، فيُعاد المسند إليه مُظهرًا، فيقع التذييل فذلكةً لجملة المعنى.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (إنّه بما تعملون بصير)، ونقل البقاعي عن أبي الحسن الحرالي أنَّ إظهار الاسم الأجلّ في موضع الإضمار للإشعار بالاستئناف ليكون ختمًا جامعًا؛ لأنه لو عاد على خصوص هذا الخطاب لكان (إنّه)، وذلك لأن تجديد الإظهار يقع بمعنى ردّ ختم الخطاب على إحاطة جملته. والمعنى أنه لو أضمر لكان ربما أفهم تقييد عِلمه بحيثية ما تقدّم من

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٨/ ٢٥٨).

عمل الخير؛ وعلى مثل هذا دلّ قول العلّامة شمس الدين الغزي في أول شرحه لإيساغوجي: الغالب في المضمر إرادة المعنى الأول(١).

ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، أظهر الاسم الأجلَّ، ولم يقل: (إنّه هو)؛ إشعارًا باستقلال جملة التذييل، فتكون فذلكةً لِمَا مرَّ من معانٍ من أوّل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: ١٢]؛ ولذا عرَّف الوصفين في الثانية بعد تنكيرهما في الأولى. والله أعلم.

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤- ٦٥]، أظهر اسمي الله والربّ في موضع الإضمار مرارًا؛ لأنّ المقام مقام تعظيم وامتنان بذِكْر النعم المتواترة والآلاء الباهرة، ثم قال مُظهرًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[غافر: ٦٥]؛ ليعود الحمد على جميع النعم المذكورة، والدلائل المنصوبة على ألوهيته ووحدانيته وربوبيته. والله أعلم.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (٢/ ١٠٩- ١١٠).

الثالث: لبيان اعتراض الجُمَل:

ومن المواطن التي يتأكَّد فيها الإظهار في مقام الإضمار لبيان استقلال الجُمَل أن تكون تلك الجُمَل معترضة؛ لأن الاعتراض جملة مستقلّة، فلو كان فيها ضميرٌ عائد إلى ما في جملة أخرى لكان في النثر شبه عيب التضمين في الشِّعْر، وقد تكون الجملة الاعتراضية جارية مجرى المثل، فلا يحسن اشتمالها على ضمير ليس من أجزائها(١).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٥]، فجملة: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ١٣٥]، جملة معترضة، أظهر فيها الاسم الأجلّ للتعظيم والتأكيد والتحقيق، ولتقوية الرجاء، وليتمكّن بيان استقلالها، ولتجري مجرى المثل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]، فيه جملة معترضة للاحتراس، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، ولم يقل: (ونحن أعلمُ بما ننزِّل)؛ بل أظهر في موضع الإضمار على طريقة الالتفات من التكلُّم للغيبة؛ تقويةً

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥/ ١٥٥).

للاعتراض، ودفعًا لتوهُّم التعدُّد، وإشعارًا بالعلّة؛ فإنَّ الألوهية مستلزمة للعلم والحكمة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، أظهر في محلّ الإضمار، ولم يقل: (وأرضُه واسعة)؛ لتقوية داعي المأمور، ولزيادة التمكُّن. «والوجه أن تكون جملة: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، معترضة، والواو اعتراضية؛ لأن تلك الجملة جرَت مجرى المثل»[(١)].

الرابع: لإخراج أحد الحكمين أو كليهما مخرج العموم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]، ولم يقل: (ألا إنَّ وعده)؛ لزيادة استقلال الجملتين، وتعميم الحكم على ما وعد به الله تعالى، وتفخيم الوعد بإضافته إلى الاسم الأجلّ، وتربية المهابة لدى مَن يرتاب في هذا الوعد، وتقوية رجاء المؤمنين به، وليجري قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ مجرى المثل بعد أن خرج مخرج القاعدة الكلية.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٣/ ٣٥٤).

ويرشّحه لهذا الغرض افتتاح هذا التذييل بحرف التنبيه، وإعادة حرف التنبيه للتأكيد على سماعه، وللتنبيه على أنه كلام جامع هو حوصلة الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفًا(١).

الخامس: لبيان انفصال الحكمين، ورفع اللَّبْس باتصالهما:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (ويمحُ الباطلَ)، ولو قال لأَوْهَم عطفَها على جملة جواب الشرط، وهو معنًى غير مرادٍ قطعًا، بل المراد الاستئنافُ، فليس (يمحُ) بمعطوف على (يَختِمْ) فيكون مجزومًا، بل هو مستأنَفٌ مرفوع، وإن لم يكن فيه واو في رسم المصحف(٢).

وقد قوَّى إظهار الاسم الأجلّ في موضع الإضمار من الفصل بين الجملتين. والله أعلم.

السادس: للتنبيه إلى اختلاف القائلين:

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فجملة: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١١/ ١٩٩).

(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء (٣/ ٢٣).

﴿أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ من مقول الكفَّار، وجملة: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ استئناف من الله تعالى في الردّ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥١]، قال الطيبي: «ووضع الاسم الجامع موضع الضمير، يعني: إذا تفكرتم واعتبرتم وتذكرتم، وتبيَّن لكم أنه هو القهار الصمد، وإليه المرجع والملجأ، فلوذوا إليه وتوكّلوا عليه، ولا تشركوا به شيئًا، والعبادة من لوازم ذلك»(١).

وحكى الواحديّ إجماع المفسّرين على أنَّ الله ﷻ أمَر نبيه ﷺ أن يقول هذا للناس، والضمير في ﴿مِّنۡهُ﴾ عائد على اسم الله تعالى. وعلى هذا يكون تقدير الكلام: (فقُل لهم: فِرُّوا إلى الله)، على إضمار الأمر بالقول(٢).

وذهب فيه الرازي مذهبًا حسنًا مُحتملًا فقال: «في تنوّع الكلام فائدة، وبيانها هو أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا﴾ [الذاريات: ٤٩]، ثم جعل الكلام للنبي ﷺ، وقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ولم يقُل: (فَفِرُّوا إلينا)؛ وذلك لأنّ لاختلاف الكلام تأثيرًا، وكذلك لاختلاف

(١) فتوح الغيب، للطيبي (١٥/ ٣٤).

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٤٠٥)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٧/ ١٩).

المتكلمين، ولهذا يُكثر الإنسان من النصائح مع ولده الذي حاد عن الجادة، ويجعل الكلام مختلفًا؛ نوعًا ترغيبًا ونوعًا ترهيبًا، وتنبيهًا بالحكاية، ثم يقول لغيره: تكلَّم معه لعلّ كلامك ينفع؛ لِمَا في أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثِّر. والله تعالى ذكر أنواعًا من الكلام، وكثيرًا من الاستدلالات والآيات، وذكر طرفًا صالحًا من الحكايات، ثم ذكر كلامًا من متكلِّم آخر هو النبي ﷺ. ومن المفسّرين من يقول تقديره: فقل لهم ففِرُّوا»[(١)].

ويجوز أن يكون قال له: (قل لهم: ففِرُّوا)، وقل لهم: (لا تجعلوا)، ويعضده تكرار قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٣٠] في الآيتين.

ومهما يكن من أمر؛ فإنَّ الإظهار في قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١] علامة على اختلاف القائل لهذا الكلام عمَّا قبله. والله أعلم.

الغرض الخامس: إجراء الجملة مجرى المثل والكَلِم الجوامع والتذكرة المركَّزة:

ويتعلَّق بالغرض السابق تعلُّقًا وثيقًا إرادةُ إجراء إحدى الجملتين أو كلتيهما مجرى المثل أو النصيحة الجامعة، أو التذكرة المُركَّزة، أو الحِكَم

(١) التفسير الكبير، للرازي (٢٨/ ١٨٩). وانظر التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٧/ ١٩).

وجوامع الكَلِم. ولو أُضمر المسند إليه فيها لَمَا صلحت لهذا الغرض؛ لافتقار الضمير إلى ما يعود إليه.

وينسجم هذا الغرض مع أهمّ مقاصد القرآن الكريم، وهو تمكين الإيمان بأسماء الله وصفاته، وتربية الناس على ذلك. وكثرة المواعظ القصيرة المركَّزة، والحكم الجوامع، والأمثال السائرة التي تربط المتحدّث والسامع بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته طريقة قرآنية مطروقة لتحقيق هذا الغرض.

فهو أسلوبٌ جماليٌّ بليغٌ من أساليب تقرير المعاني في النفوس، وترسيخ العقائد في الصدور.

وكثير من الأمثلة المذكورة بالغرض السابق صالحة للتمثيل لهذا الغرض.

ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فأظهر الاسم الأجلَّ، ولم يقل: (وإليه ترجع الأمور)؛ لتعليل الحُكم؛ إِذْ من مقتضيات ألوهيته رجوع الأمر إليه وحده، ولتربية المهابة، ولتستقلّ جملة التذييل فتسير مسير المثل والحِكَمِ الجوامع.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، ولم يقل: (وإليه المصير)؛ لتربية

المهابة، وتقوية وازع المنهيِّ، ولتعليل الحكم، ولتستقلّ جملة التذييل فتسير مسير المثل والموعظة الجامعة، والتذكرة المركَّزة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٩]، فأظهر الاسم الأجلَّ دون الضمير، فلم يقل: (وهو على كلّ شيء قدير)؛ لتكون الجملة مستقلّة، فتجري مجرى المثل(١)، والتذكرة المركَّزة.

وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة: ١٩]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقُل: (وجاهَد في سبيله)؛ لتفخيم السبيل بإضافته إلى الاسم الأجلّ، ولتشريف المجاهدين فيه، ثم أظهر ولم يقُل: (لا يستوون عنده)؛ للتعظيم، ولتربية المهابة، ولتقوية داعي المأمور بالمستفاد من المفاضلة، ولتعليل الحكم؛ فإنَّ من مقتضيات الألوهية العلم والحكمة. ثم أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وهو لا يهدي) أو: (ولا يهدي القوم الظالمين)؛ لتربية المهابة، وبيان استقلال الجُمَل، ولتتهيأ جملة التذييل لتسير مسير المثل.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٢٢٢).

ومن أمثلته الظاهرة قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾ [الرعد: ١١]، فأظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (إنّه لا يُغيّر)، وذلك لزيادة التمكين، ولتستقل الجملة فتسير مسير المثل، وهي من الأمثال السائرة. وفيه أيضًا الإشعار بعلّة الحكم، فمِن مقتضى الألوهية أنَّ الله تعالى حكيمٌ لا يظلم الناس شيئًا، فلا يغيِّر نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الخير والشُّكْر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]؛ فيه أيضًا إظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: (وإذا أراد بقوم)؛ لتستقلَّ الجملتان؛ لِما في الثانية من حُكمٍ إضافيٍّ، فالأُولى بيّنَت سنّة الله في التغيير، والثانية بيّنت قدرته على إنفاذ إرادته إذا حصل مقتضاها، فحسُن التعبير بالاسم الأجلِّ ظاهرًا في كلّ جملة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٤]، كان مقتضى الظاهر أن يقال: (ولا ينبئك أحدٌ مثلي خبيرٌ) بالنظر إلى أنَّ المتكلم هو الله ﷻ، وبالنظر لقوله في الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ [فاطر: ١٣]، فكان يجوز: (ولا ينبئك أحدٌ مثله خبيرٌ)، ولكن أقام الظاهر مقام المضمر؛ للتفخيم، وللإشعار بعلّة الحكم؛ فالخبير هو الحقيق بالإنباء في مجال خبرته، فما الظنُّ بربّ العالمين الذي له كمال الخبرة بكلّ شيء؟

وفيه كذلك تقريره ليسير مسير المثل، وقد كان[١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، أظهر فيه الاسم الأجلَّ مع فعل (تبَارَك) دون الإتيان بالضمير مع تقدُّم اسمه ظاهرًا، وذلك لتكون الجملة كلمة ثناء مستقلة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٦- ٥٨]، أظهر في مقام الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل: (إنِّي أنَا الرزّاق)؛ وذلك لزيادة التمكُّن، وللإشعار بالعلّة، ولتكون هذه الجملة مستقلّة بالدلالة؛ لأنها سُيّرت مسير الكلام الجامع والأمثال[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[التغابن: ٨]، أظهر في مقام الإضمار على طريقة الالتفات، ولو التزم مقتضى الظاهر لخرج عن التعبير القرآني، فليس فيه: (ونحن بما تعملون خبراء)، أو نحو ذلك.

---

(١) ذكره جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب (ص٦٢) ضمن الألفاظ التي يتمثل بها من القرآن الكريم. وانظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٢/ ٢٨٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٤/ ١٩١- ١٩٢).

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٧/ ٢٩).

وأرى أنَّ ذلك في ذاته غَرَضٌ مُعتبَر؛ للخروج عن مقتضى الظاهر، يمكن إضافته إلى الأغراض التي يذكرها المفسِّرون المعتنون بالبلاغة القرآنية.

ولما كانت جملة: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ تذييلًا لجملة: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾؛ فإن هذا التذييل يمكن حمله على الوعد للذين امتثلوا الأمرَ فآمنوا، كما يمكن حمله على الوعيد للذين لم يمتثلوا الأمر فكفروا، فصلح إظهار الاسم الأجلّ في هذا الموضع لتربية المهابة وتقوية داعي المأمور. كما أنَّ في إظهاره تهيئة جملة التذييل للاستقلال فتجري مجرى المثل(١)، ويرشّحه لهذا الغرض مكان الالتفات فيه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾[الطلاق: ١]، أظهر في موضع الإضمار في لفظين، فلم يقل: (ومن يتعدَّها)، ولم يقل: (ومن يتعدَّ حدوده)؛ لأنَّ إظهار الاسم الأجلّ فيه تربية للمهابة ومبالغة في الترهيب. ولم يقل: (لعلّه يُحدِث)؛ لرفع أيّ توهُّم بعَوْد الضمير على (مَن)، وليتمكَّن المعنى، ولتسير جملة التذييل مسير المَثَل، وهي من الكلمات الجوامع التي تُستدعى كثيرًا في النصائح والمواعظ. والله أعلم.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٨/ ٢٧٣).

الغرض السادس: تربية المهابة وإدخال الرَّوْع في رُوع السامع:

تنشأ المهابة عن الإجلال والتوقير، كما تنشأ عن الخشية والرهبة، وقد يغلب جانب الخشية والرهبة، فيدخل الرَّوْع في النفس، وبهما تتربَّى المهابة؛ ولذا يجمع العلماء بين تربية المهابة وإدخال الرَّوْع. وهما لا ينفكَّان في الشعور عادةً، واعتبر بحال الإنسان عند مخاطبة الملوك وما يداخله من شعور التعظيم والإجلال، والروعة التي تداخله مخافةً منه، وخشية لحوق الضّرر من شيء يستتبعها إجلاله وتعظيمه في القلب[(١)].

ولا شكَّ أنَّ ذكر المُعظَّم بالاسم الظاهر يُنشئ من المهابة في قلب السامع ما لا ينشئه المضمَر، وخصوصًا إذا كان السياق سياق تحذير وتهديد.

ولمَّا كانت تربية المهابة تثمر اليقظة وتزعج القلب عن الغفلة؛ فقد تقصَّدها القرآن الكريم بالتصريح والتلميح. ومن طُرُقِها إظهارُ الاسم الأجلِّ كثيرًا في المواضع التي يقتضي الظاهر الإضمار فيها.

يقول الدكتور أبو موسى: «وخذ المصحف، واقرأ فيه من أيّ موضع تشاء تجد هذا الأسلوب وكأنه أصل من أصول البلاغة القرآنية، تجد أسماء الله الحسنى وخصوصًا هذا الاسم الأعظم يقع هذا الموقع في كثير من الجُمَل

(١) انظر: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١/ ٧١٤- ٧١٥).

القرآنية؛ لينساب نورها الغامر في القلوب، وتشيع مدلولاتها فتتمكّن من النفوس زيادة تمكّن وتتقرّر في السرائر أحسن قرار، وبذلك تتربى مهابة الحقّ وحده في الأمة التي يربيها القرآن، فلا يكون في صدرها خشية إلا لله وللحقّ»[(١)].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، أظهر الاسم الجليل في مقام الإضمار، فلم يقل: (يحبونهم كحبه)؛ لتربية المهابة، وإبانة كمال قبح ما ارتكبه الذين اتخذوا من دونه أندادًا[(٢)].

وقوله تعالى في الآية ذاتها: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، صرَّح بالاسم الظاهر، ومقتضى الظاهر أن يقول: (وأنَّه شديد العقاب)، ولكنَّه أظهر لتربية المهابة، وإدخال الرَّوْع. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، فيه إظهار في موضع الإضمار، إذ لم يقل: (ولا يكلّمهم يوم القيامة)؛ وإنما حسن ذلك لطول الكلام مع عدم انقضاء

(١) خصائص التراكيب، لأبي موسى، ص٢٤٧.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ١٨٦).

الخبر، كما أنَّ التصريح بالاسم الأجلّ في موضع الإضمار فيه تربية للمهابة، وإدخال الرَّوْع في قلوب مَن تُزَيِّن له نفسُه كتمانَ الرسالة، وبيع الحُكْم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، تحذير من شدة عقاب الله سبحانه، ولم يقل: (واعلموا أنّه)، ففيه الإظهار في موضع الإضمار؛ بغرض تربية المهابة وإدخال الروع في نفس السامع[(١)].

وقوله تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[البقرة: ٢١١]، ذكر الاسم الظاهر في موضع الضمير، فلم يقل: (فإنه شديد العقاب) كما يقتضي الظاهر، ومن أغراضه البلاغية تربية المهابة وإدخال الرَّوعة في ضمير السامع من كفران النعمة، ولتكون هذه الجملة كالكلام الجامع مستقلًّا بنفسه؛ لأنها بمنزلة المثل[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ولم يقل: (وإليه المصير)، لتربية المهابة وإدخال الروعة.

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ٢٠٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان (١/ ٤٠٠).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ٢١٣)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ٢٩٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، أظهر اسم الجلالة في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخالِ الروعة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٩]. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضع الإضمار لتربية المهابةِ[(٢)]، ولزيادة التحذير، وللإشعار بعلّة الحُكْم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فقوله: خير الماكرين؛ أي: أقواهم مجازاة، وأنفذهم عقوبة للماكرين، وأقدرهم على إيصال الضّرر إليهم من حيث لا يحتسبون. وإظهار الاسم الأجلّ في موقع الإضمار؛ لتربية المهابة وإدخال الروع[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٨).
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٢٣- ٢٤).
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٤٣).

فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، أظهر الاسم الجليل في موقع الإضمار فلم يقل: (وهو يحيي ويميت)؛ لزيادة التمكُّن، ولتستقل الجمل، فتسير جملة: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مسير المثل، ولم يقل: (وهو بما تعملون بصير)؛ وذلك لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد[1]، وفيه تتميم إِذْ لمّا ذكر الإحياء والإماتة؛ كأنه أشار إلى ما بعد الموت، وهو البعث والجزاء، فذكَّرهم ببصر الله تعالى بأعمالهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة[2] وتهويل العقوبة، ولتتوازن الجملتان، فتتضح الموازنة بين المرضيّ عنهم، والمغضوب عليهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[آل عمران: ١٨٠]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، فلم يقل: (وله ميراثُ السماوات والأرض)؛ لطول الفصل، فحسُن التعبير بالاسم

(١) انظر: إرشاد العقل السلم، لأبي السعود (٢/ ١٠٤).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٠٧).

الظاهر لزيادة التمكُّن، ولتعليل الوصف، فإنّ من مقتضى إلهيته تفرّده بميراث السماوات والأرض. ولم يقل: (وهو بما تعملون خبير)؛ لتربية المهابة بالمبالغة في الوعيد، والإشعار باشتداد غضب الرحمن الناشئ من ذكر قبائحهم[(١)]، ولتستقلّ جملة التذييل فتسير مسير المثل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]، أظهر الاسم الأجلَّ بطريق الالتفات، فلم يقل: (وكان ذلك علينا يسيرًا)؛ وذلك لتربية المهابة، وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي[(٢)]، ولتعليل الحُكم، فإنَّ من مقتضيات الإلهية الاقتدار التامّ على فعل ما يريد. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، فلم يقل: (وهو أشدّ بأسًا)؛ وذلك لتربية المهابة، وتشديد الوعيد، وتعليل الحُكم، وتقوية استقلال الجملة. وتكرير الخبر ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ لتأكيد التشديد[(٣)].

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٠- ١٢١).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٧٠).

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٢١٠).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، فلم يقل: (أنْ تَهدوا مَن أضلّ؟)؛ للاستعظام، وبيان عجزهم التامّ في مقابل قدرته المطلقة التي هي من مستتبعات ألوهيته. ولم يقل: (ومَن يضلل)، بل أظهر الاسم الأجلَّ، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ وذلك لتربية المهابة، ولتعظيم حُكم الله، ولتعليل الحُكم؛ إذْ من مقتضى الألوهية نفاذ مشيئته الراجع إلى حكمته وعزّته وقدرته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]؛ أظهر الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة، وتقوية استقلال الجملة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]؛ أظهر الاسم الأجلَّ في موقع الإضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧]، أظهر الاسم الأجلَّ في موقع الاضمار؛ لتربية المهابة، وتعليل الحكم، وتقوية استقلال الجملة[(٣)].

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٥).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٨).

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ١٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة: ٧٢]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، فلم يقل: (إنه من يشرك به)؛ تفظيعًا وتقبيحًا للشرك بالله العظيم، وأظهر ثانية، ولم يقل: (فقد حرَّم عليه)؛ لزيادة التقرير، ولتهويل الأمر، وتربية المهابة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، أظهر الاسم الأجلَّ في موقع الإضمارِ فلم يقل: (ليعلم مَن يخافه)؛ لتربية المهابةِ، وإدخالِ الروعة[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار بطريق الالتفات، فلم يقل: (كذلك نطبعُ على قلوب الكافرين)؛ وذلك لتربية المهابة وإدخال الروعة[(٣)].

---

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٦٦).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٧٨).

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٢٥٦).

وعلى مقتضى الظاهر جاء نظير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]، وقد يُسأل عن وجه ذلك: لِمَ خالفت آية الأعراف مقتضى الظاهر، ووافقته آية يونس؟ ولِمَ قال في آية الأعراف: ﴿قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وفي يونس: ﴿قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؟

وأُجيب عن ذلك بأنَّ آية سورة الأعراف مبنيّة على ما تقدّمها من الآيات، وهي تنتقل في الإخبار عن الله تعالى من الإضمار إلى الإظهار، ومن الإظهار إلى الإضمار، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾[الأعراف: ٩٧]، وقال: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]، فأضمر، ثم قال بعدُ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، فأظهر على خلاف مقتضى الظاهر، ولم يقل: (أفأمِنوا مكرَنا)، ثم عاد للإضمار، فقال بعده: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، واستمرَّ مطلع الآية اللاحقة على الإضمار: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١]، ثم عاد إلى ذكر الطبع، فأجراه على الإظهار؛ تشبيهًا بما بنيت عليه الآيات المتقدّمة من الانتقال من الإضمار إلى الإظهار.

وأمّا آية سورة يونس فما قبلها جارٍ على نسقٍ واحد وسَنَنٍ لاحب، وهو الإضمار، فقال في شأن نوح: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، ثم استمر على ذلك، فقال بعده: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]، ولم يتقدّمه ما يخالف هذا المنهج، ولم يبن على الطريقين، فأضمر على مقتضى الظاهر(١).

وظهر لي فيه وجهٌ وجيهٌ بإذن الله: ذلك أنه لمّا قال في آية الأعراف: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وأعاد ذِكر الطبع على قلوبهم مرّة أخرى؛ أعاده تنويعًا في الأسلوب وتفنُّنًا، وأوقعه مؤكَّدًا على مقتضى المُعاد والمكرَّر إذْ كان في مقام الوعيد، فناسب هذا التأكيدَ الإظهارُ في مقام الإضمار، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الأعراف: ١٠١]، وناسب من جهة أخرى إقامته ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في مقام ضميرهم، فلم يقل: (يطبع على قلوبهم)؛ تحقيقًا للوصف: أنَّهم بعدم سماعهم سماع استجابةٍ استحقوا وصف الكفر. فناسب الإظهار في مقام الإضمار في الاسم الأجلّ، وفي اسم الكافرين، فتأمل!

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي، ص٩١- ٩٢.

وأمّا الجواب عن سبب اختصاص سورة الأعراف بقوله: ﴿قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وسورة يونس بقوله: ﴿قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: أنّ آية الأعراف تقدّمها تفصيلُ قصص مكذِّبي الأمم أنبياءَهم وما ردُّوا عليهم وخاطبوهم به، فحصل من ذكرهم التعريف بحال غيرهم ممن سلك مسلك مَن تقدّمهم من المذكورين ما ناسبه قوله تعالى عقب جميعها: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]. وأمّا آية يونس فلم يتقدم قبلها تفصيل ولا إفصاح كالواقع في سورة الأعراف، بل ورد ذلك مورد الإجمال فناسبه وصفهم بالاعتداء؛ إذْ لم يقع إفصاح بكفرهم، مع أنهم كفار كما هو حاصل من مجمل ذكرهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (فاتقوه)؛ وذلك لتربية المهابة، وتقوية داعي المأمور، أي إذا كان أمرُ الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه، واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلافِ الموجِبِ لسخط الله تعالى، واتقوه في كلّ ما تأتُون وما تذَرُون[(٢)]. ولم يقل: (وأطيعوه ورسوله)؛ لزيادة التمكُّن، ولتقوية داعي المأمور، ولتستقلّ الجملة.

(١) انظر: مِلاك التأويل، لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٣).

(٢) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٤/ ٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وهو بما يعملون محيط)؛ لتستقلّ الجملتان، وتتهيأ جملة التذييل لتسير مسير المثل، وللتهديد وتأكيد الوعيد، ولتربية المهابة، ولتعليل وصف الإحاطة، إذ ذلك من مستتبعات إلهيته. والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ٩٤]، فأظهر في موضع الإضمار في موضعين، فلم يقُل: (وسيرى عملكم)، ولم يقل: (ثم تردّون إليه)؛ وذلك لتربية المهابة، وإدخال الرَّوْع في نفوسهم إذا تفكروا في مردّهم إلى مَن لا تخفى عليه سرائرهم، ولا تغيب عنه أعمالهم. كذلك فإنَّ فيه إشارة إلى علّة الحُكم؛ فإنّ كونه عالم الغيب والشهادة يقتضي أنَّه مطّلع على سرّهم وعلانيتهم ومجازيهم عليها.

والفرق بين هذا الموضع ونظيره في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، أنَّ الخطاب في الأول للمنافقين، وفي الثاني للمؤمنين، وإشارته إلى عِلمه للغيب والشهادة كأنَّه يخبرهم بأنه لا يضيع أعمالهم، وإنما يثيبهم عليها وإن كانت نيّاتٍ قعد بهم الفقر عن إيقاعها أعمالًا. ولذا فإن نكتة الإظهار في الثاني تقويةُ الرجاء زيادةً عمَّا في الأول. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء: ٥٧]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (إنّ عذابه كان محذورًا)؛ تربية للمهابة وإدخال الروع، وتقوية لرجاء توَقِّيه. وهي من المواضع التي اجتمع فيها تربية المهابة وتقوية الرجاء معًا؛ لِما في لفظ الربِّ من معاني التربية والإنعام والإحسان، ولِما في إضافته إلى ضمير المخاطب. فمثله ﷻ يُرجى لتجنيب عذابه.

وإلى ذلك؛ ففي الإظهار في هذا الموضع تقوية استقلال جملة التذييل؛ لتتمحض للاقتباس كموعظة مختصرة جامعة، وتذكرة مركَّزة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، فيه إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل: (وكفى بي وكيلًا)، ويجوز أن تكون تكملة لتوبيخ الشيطان، فتكون كافُ خطابه تسجيلًا عليه بأنه عبد مربوب لله ﷻ، ولتربية المهابة للمغرورين به، ويجوز أن تكون الجملة معترضة في آخر الكلام فتكون كافُ الخطاب ضميرَ النبي ﷺ تقريبًا للنبي ﷺ بالإضافة إلى ضمير الله ﷻ، ويكون الإظهار في مقام الإضمار غرضه تمكين اعتراض الجملة، وتشريف النبي ﷺ بإضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ[1].

(١) وانظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥/ ١٥٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢]، فيه إظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: (وإليه المصير)؛ لزيادة التمكُّن، ولتتوازن الجملتان، كأنّ إحداهما أشارت لمُلك الدنيا، والثانية أشارت لمُلك الآخرة، ولتستقلّ كلّ منهما فتتهيأ لتسير مسير المثل، وفيه إلى ذلك تربية المهابة، وتقوية داعي المأمور، والإشعار بعلّة الحُكْم، فإنّ مِن مقتضى ألوهيته مُلْكَ يوم الدين. والله أعلم[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[غافر: ٦٦]، ذَكَرَ (ربّ) مضافًا إلى ضمير المتكلّم دون أن يجعل مجرورها ضميرًا يعود على اسم الجلالة؛ إظهارًا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر؛ لتربية المهابة في نفوس المُعرَّض بهم؛ ليعلموا أنَّ هذا النهي ومجيء البينات هو من جانب ربِّه وربّهم، فما يسعهم إلا أن يطيعوه. ولذلك عزّزه بإضافة الربّ إلى الجميع في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (أنْ أُسلِم له)؛ أراد ربكم وربّ غيركم، فلا منصرف لكم عن طاعته[2].

وأيضًا ففي تكرير اسم الربّ تلذيذ وتأنيس. والله أعلم

---

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٨٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٤/ ١٩٦- ١٩٧).

الغرض السابع: الاستقباح وتهويل الخطب:

من الأغراض البلاغية للتصريح بالاسم الظاهر في موضع الضمير الاستقباح وتهويل الخطب. وذلك أنَّ الاسم الظاهر كلّما كان عَلَمًا على عظيمٍ؛ فإنَّ التصريح به في سياق الإخبار بما يُقْتَرف من جنايةٍ في حقِّ هذا العظيم يُشْعِر بهَوْل ما اقترف المقترِف في حقّه، ومدى عظيم قُبح فعله. ومثال ذلك أن يقول القائل: عصيتَ أمرَ السلطانِ، والسلطانُ ينظر إليك؟! فوقعَت لفظة السلطان الثانية على خلاف مقتضى الظاهر لما فيها من إشعارٍ بهَوْل الخطب الذي كان من العاصي، ومثل هذا لا يقوم فيه الضمير بما يقوم به الاسم الظاهر من المعنى.

ولتشعر بهول الخطب استمع إلى قول النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»[1]. ولو قاله على مقتضى الظاهر، لقال: (فتركه)، أو لقال: (فترك قيامه)، ولكن ليس فيهما ما في قوله: «فترك قيام الليل» من الإشعار بهول الخطب، وبأنَّه ما كان يحسُن به تركُه؛ مع أنَّه مندوب على سبيل الاستحباب لا الوجوب، ولكن لمّا كان في تركه تفويتُ الأجر العظيم والخيرِ العميم؛ كان تركُه أمرًا جللًا.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:١١٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح:١١٥٩).

ولعلَّ أوَّل مَن نبَّه لهذا الغرض الزمخشري، وذلك في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، قال: تقديره: تُوعِدون مَن آمن به وتصدُّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو (سبيل الله) موضع الضمير؛ زيادةً في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدّون عنه»[(١)].

ولكنّه نضج واستوى على يدي أبي السعود العمادي، فقد نبَّه عليه في تفسيره مرارًا؛ غرضًا من أغراض الإظهار في موضع الإضمار.

ومن الأمثلة التي يمكن تخريجها على إرادة تهويل الخطب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، أظهر فيهما في موضع الإضمار، ولم يقل: (ويقطعون ما أمَر به)؛ لتعظيم الأمر بإضافته إلى الاسم الأجلِّ، ولتهويل الخطب، وتعظيم ما أقدموا عليه من الذنب، بقطعهم ما أمر الله بوَصْله. والله أعلم.

(١) الكشاف، للزمخشري (٢/ ١٢٨).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨]، فأظهر في محلّ الإضمار، ولم يقل: (وهو شهيد على ما تعملون)، تشديدًا للتوبيخ وتأكيدًا للإنكار، وتربية للمهابة، وتهويلًا للخطب[(١)].

وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، صَرَّح بالاسم الأجل في موضع الضمير على طريقة الالتفات، فلم يقل: (بما أشركوا بنا)، وذلك لتهويل الخطب، وبيان عظم الذنب وقبحه. وفيه كذلك دفع إيهام التعدُّد، ففي مقام إخلاص العبودية لا يُستخدم ضمير العَظَمة؛ حتى لا يُوهم الجمع والتعدُّد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (ومن يشرك به)؛ لتربية المهابة، وإدخال الرَّوْع[(٢)]، وتهويل الخطب بما اقترفوا من عظيم الذنب الذي ليس بعده ذنب، وتمكين انفصال الجُمَل؛ ليخرج التذييل مستقلًّا على طريقة المَثَل. والله أعلم.

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٦٣).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان (٣/ ١٤٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[المائدة: ٦٠]، أظهر الاسم الأجلَّ في مقام الإضمار، فلم يقل: (مَن لعنه وغضب عليه)، وذلك لتهويل الأمر، وإدخال الروعة، وتربية المهابة(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فيه تصريح باسم الربّ موضع الضمير، فلم يقل: (به يعدِلون)، وأفاد ذلك زيادة تقبيح فعلهم، والتشنيع عليهم(٢). وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: ١]، خبر مستعمل في التعجيب من فعلهم، فإنّ عدول المشركين عن عبادة الله ﷻ مع علمهم بأنه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعجب من علمهم بذلك(٣).

ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: ١٥٠]، فجاء الظاهر في موضع المضمر على طريقة الالتفات، فلم يقل: (وهم بنا يعدِلون)؛ لزيادة التشنيع عليهم،

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٥٥).
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ١٠٥).
(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٧/ ١٢٨).

وتقبيح فعلهم، ويؤكّده أنَّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عطف على ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، والمقصود عطف الصلة على الصلة؛ لأنّ أصحاب الصلتين متَّحِدون، فكان مقتضى الظاهر أن يقول: (الذين كذبوا بآياتنا وهم لا يؤمنون بالآخرة)؛ ولكن أجري الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لزيادة التشهير بهم[1].

وفيه كذلك دفع إيهام التعدُّد؛ لأنَّ المقام نعيٌّ على المشركين. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[الأنعام: ١٤٠]، صرَّح فيه بالاسم الظاهر في موضع الضمير، ولم يقل: (وحرّموا ما رزقهم الله افتراء عليه)؛ لتهويل الخطب، وتقبيح ما اقترفوا من الذنب، ولإظهار كمال عُتوِّهم وطغيانهم[2].

ومن لطائف النَّظم وجمالياته أنه قال قبل هذه الآية بآية واحدة: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِ﴾[الأنعام: ١٣٨]، فخرجت على مقتضى الظاهر، ولم تأتِ على طريقة الآية الثانية في التصريح بالاسم الظاهر في موضع

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٨-أ/ ١٥٥).

(٢) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ١٩١).

الضمير؛ لأن عدم التسمية على ذبائحهم، وإن كان ذنبًا عظيمًا قد يصل إلى الإشراك به؛ فليس في عظم الشِّرك إذا أُضيف إليه التحريم والتحليل بأهوائهم، فإنه حينئذ يكون من جنس القول على الله بغير علم، وهو أشدُّ؛ كما يُستنبط من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]، فالأول شركٌ، والثاني شِركٌ وتألٍّ، فجاء الاسم الأجلُّ في الآية الثانية مُشعرًا بهول الخطب، وعَظيمِ الذنب الذي اقترفوه. فتأمّل! والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (ومن يشاققهما)؛ وذلك لبيان عظيم ما يقترفون، فهو تنديد بهم، وتقريرٌ لعظم جرمهم[(١)].

وأمّا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤]، فإن الإظهار في قوله: (ومن يشاق الله)؛ فلرفع اللّبْس؛ إِذْ لو أضمر لاحتمل توهُّم عود الضمير إلى الرسول ﷺ، وهو أقرب مذكور. وفي الإظهار كذلك تهويل الخطب، وتفظيع الذنب. ولم يجمعهما كآية الأنفال؛ لبيان أنَّ من شاقَّ رسول الله ﷺ فقد شاقَّ الله ﷻ.

(١) انظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٦/ ٣٠٨١).

وأظهر ثانية في موضع الإضمار، فلم يقل: (فإنه شديد العقاب)، لزيادة التقرير، وتربية المهابة، وإدخال الروع. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾[الرعد: ٣٠].

وفيه إظهار بديعٌ على طريقة الالتفات في موضع الإضمار، فلم يقُل: (وهم يكفرون بنا)، وذلك للتفخيم والتعظيم، وللتعجيب من شأنهم، وتقبيح فعلهم، وتعظيم جرمهم، إِذْ كيف يكفرون به وهو الرحمن؟! ولعلّ اختيار الرحمن من بين الأسماء الحسنى في هذا الموضع لسببين:

الأول: لأنهم كانوا يدّعون أنهم لا يعرفون الرحمن، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا﴾ [الفرقان: ٦٠].

الثاني: أنَّ إرسال الرسول ﷺ، وإنزال الكتاب رحمة بالغة من الله تعالى إلى البشر، كما قال تعالى في شأن الرسول ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى في شأن القرآن: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[العنكبوت: ٥١]، ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف: ٥٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فكأنه قال: كذلك أرسلناك لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك، وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كلّ شيء، وأحاطت بهم نعمته، فما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم، وإنزال هذا القرآن المعجز الذي هو مناط المصالح الدينية والدنيوية عليهم. وإقامة الاسم المظهر (الرحمن) محلّ المضمر تنويهٌ بأنَّ هذا الوحي والإرسال والتكليف بالبلاغِ ناشئٌ من تلك الرحمة(١).

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإتيان بضمير (من هو قائم)، فمقتضى الظاهر أن يُقال: (وجعلوا له شركاء)، وغرضه تفظيع جرمهم؛ إِذْ جعلوا شركاء للإله الحقّ المتفرّد بالخلق والأمر الذي ليس له سمِيٌّ(٢).

وكذا فمِن فائدة هذا الإظهار التعبير عن المسمَّى باسمه العَلَم الذي هو الأصل، إِذْ كان قد وقع الإيفاء بحقّ العدول عنه إلى الموصول في الجملة السابقة، فتهيأ المقام للاسم العَلَم، ففيه زيادة تمكين، وليكون تصريحًا بأنه المراد من الموصول السابق زيادة في التصريح بالحُجّة(٣).

---

(١) انظر: الكشاف، للزمخشري، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٥/ ٢١)، ومحاسن التأويل، للقاسمي (٦/ ٢٨٣).

(٢) وانظر: فتوح الغيب، للطيبي (٨/ ٥٢٥).

(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣/ ١٥١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]، أظهر في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل: (أشدُّ علينا)، وذكر اسم الرحمن ﷻ هنا لتفظيع عتوّهم؛ لأنّ شديد الرحمة بالخلق حقيق بالشكر له والإحسان، لا بالكفر به والطغيان(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

تُبيِّن الآية الكريمة تضجُّر إبراهيم ﷺ من إصرار قومه على الباطل البيِّن، وأظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار، فلم يقل: (ولِما تعبدون من دونه)؛ لتهويل جرمهم واستقباح ما فعلوا(٢). والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج: ٣٠- ٣١]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (ومن يشرك به)؛ وذلك لتهويل الفعل، فالإشراك بوحدانيته -التي هي مقتضى كمال ألوهيته- فعل قبيح، وجرم شنيع. وفيه أيضًا إدخال الرَّوْع وتربية المهابة؛ ليزدجر كلُّ مَن في قلبه بقية من تقوى، فيكفَّ عن الإشراك بالله تعالى.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٦/ ١٤٨).

(٢) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ٧٦).

وقوله تعالى في حكاية قول إبراهيم ﷺ: ﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (إنَّ الذين تعبدون من دونه)؛ لتفظيع فعلهم واستقباحه، ولم يقل: (فابتغوا عنده الرزق)، للإشعار بعلّة الأمر؛ إذْ إنَّ الإله الحقّ هو الحقيق بأن يُبتغَى عنده الرزق، لا الذين لا يملكون لهم رزقًا، وفيه ضمنًا تقوية داعي المأمور.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾[يس: ٧١- ٧٤]، صرَّح باسم الجلالة دون الضمير؛ لما يشعر به اسمه العَلَمُ من عظمة الإلهية؛ إيماءً إلى أن اتخاذهم آلهة من دونه جراءة عظيمة، ففيه تهويل لفعلهم هذا؛ ليكون ذلك توطئة لقوله بعده: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ [يس: ٧٦]، أي: إن كانوا قد قالوا ذلك، فقد فعلوا ما هو أشد نُكرًا بادّعائهم أنَّ لله شركاء.

وأمّا الإضمار في قوله في سورة الفرقان: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[الفرقان: ٣]؛ فلأنه تقدم ذكر انفراده بالإلهية صريحًا من قوله: ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[الفرقان: ٢][(١)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٣/ ٧٠).

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[غافر: ٢- ٤]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (ما يجادل في آيته)؛ تعظيمًا للآيات بإضافتها إلى الاسم الأجلّ، وتهويلًا لخطب الجدال فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[الزخرف: ٣٣]، فأظهر في مقام الإضمار على طريقة الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ولم يقل: (لجعلنا لمن يكفر بنا)، وذلك لتهويل الخطب، كأنَّه يقول: كيف يكفرون به وهو الرحمن؟!

الغرض الثامن: تقوية داعي المأمور:

والداعي هو ما يقومُ بالمأمور من مشاعر أو دوافع تَدفعه لامتثال الأمر. ومردُّها إلى الرغبة والرهبة، فليس قول السلطان لبعض رعيَّته: (افعل كذا وكذا)، كقوله: (السلطان يأمرك بكذا وكذا)؛ يعني نفسه، فلفظ السلطان في مثل هذا الأسلوب مُظهَرٌ وُضِعَ موضع المضمر، إذ كان حقُّ الكلام: (آمرك) أو: (أنا آمرك بكذا وكذا)[(١)].

(١) انظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، للسبكي (١/ ٢٦٧)، وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١/ ٧١٥- ٧١٦).

وله عند التدقيق مسلكان:

الأول: ما يقع في الترغيب، وهو ما يمكن أن يسمَّى تقوية داعي المأمور.

والثاني: ما يقع في الترهيب، ويمكن أن يُسمَّى تقوية وازع المنهيِّ، وهو ضرب من ضروب تربية المهابة.

ومن أمثلة ما جرى على خلاف مقتضى الظاهر بوضع المظهر في موضع الضمير لهذا الغرض، قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤- ١٩٥]، حيث أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، ولم يقل: (واعلموا أنَّه مع المتقين)؛ لتقوية داعي المأمور ووازعه، ولتربية المهابة، ولتشريف المتقين بصريح المعيّة الخاصّة، وللتعليل؛ فإن من مقتضيات الإلهية اختصاص المتقين بالمعيّة الخاصّة، وإلا استوى المتقون وغير المتقين.

وكذا أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وأنفقوا في سبيله)؛ لتفخيم السبيل بإضافته إلى الاسم الأجلّ، وتشريف المنفقين فيه، ولتقوية داعي المأمور.

وأيضًا أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (إنه يحب المحسنين)؛ لتقوية داعي المأمور، وللإشعار بعلّة الحُكم؛ إِذْ من مقتضيات الإلهية تقريب المحسنين وتشريفهم، ولتستقلَّ جملة التذييل فتتهيَّأ للسّير مسير المثل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فيه إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات؛ فلم يقل: (واشكروا لنا)، لتقوية داعي المأمور بالشكر حين يعلم أنَّه يشكر الله الشَّكور الحميد فيستنهض نفسه لشكره، ولتفخيم أمر الشكر، وتشريف الشاكرين، ولتعليل الحكم، فالله الحقّ هو أحقُّ من شُكِرَ، وكأنه يومئ إلى ألا تُشكر الأصنام؛ لأنها لم تَخلق شيئًا مما على الأرض؛ باعتراف المشركين أنفسهم فلا تستحقّ شكرًا. وهذا من جعل اللقب ذا مفهوم بالقرينة؛ إذ الضمير لا يصلح لذلك إلا في مواضع. ولذلك جاء بالشرط فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾؛ أي اشكروه على ما رزقكم إن كنتم ممن يتّصف بأنه لا يعبد إلا الله، أي: إن كنتم من هذا الفريق وهذه سجيّتكم[(١)].

ومثله قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، إِذْ أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (واشكروا نعمته)؛ لتعظيم النعمة بإضافتها إلى الاسم الأجلّ، وفي هذا تقوية داعي المأمور. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولم يقل: (فتوكَّلْ عليه)؛ لأنه أظهر قبلُ في قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ [آل

(١) وانظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ١٠٩)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ١١٤).

عمران: ١٥٩]؛ وذلك لِما في لفظ (الله) من تقوية الداعي إلى التوكُّل، وللتشريف، ولبيان الاعتناء بشأن التوكّل، وللإشعار بعلّة الحكم؛ إِذْ من مستتبعات الألوهية التوكُّل عليه.

وكذا لم يقل: (إنه يحب المتوكّلين)؛ لتقوية داعي المأمور بالتوكُّل، وللإشعار بعلّة الحُكم، ولتستقلَّ جملة التذييل فتجري مجرى المثل. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، صدَّر الجُمَل الثلاث بقوله: (إنّ الله)؛ للإشعار باستقلالها، وتنوُّع معانيها، فالأُولى في مأمور معيَّن وهو أداء الأمانة والحكم بالعدل، والثانية في بيان حُسن الشريعة، والثالثة في بيان إحاطة الله تعالى بعمل العاملين إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، ويستتبع ذلك إفادتها معنى الوعد والوعيد.

وأظهر في موضع الإضمار في الجملتين الثانية والثالثة؛ لتمكين هذا الاستقلال، ولتقوية داعي المأمور، ولتربية المهابة، وتمكين الوازع، ولتعليل الحُكم، فمن مقتضيات الإلهية حسن التشريع، وكمال الحكمة والقدرة، وتمام الإحاطة. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]، أظهر الاسم الأجلّ في موقع الإضمار؛ لتربية المهابة، وتقوية داعي المأمور بالتقوى، ولتعليل الحكم، وتقوية استقلال الجملة للتذييل فتسير مسير المثل(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، أظهر الاسم الموصول، كما أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار بطريقة الالتفات، فلم يقل: (فاحكم بينهم به)، أو: (بما أنزلنا)؛ وذلك لتعظيم المُنزِل وتفخيم المُنزَل، وتقوية داعي المأمور بالحكم به.

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾، إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، فمقتضى الظاهر أن يقال: (ولو شئنا لجعلناكم)؛ وفيه التعظيم وزيادة التقرير والإشعار بعلّة الحُكم فمِن مقتضيات إلهيته نفاذ مشيئته، وكمال قدرته.

وأظهر الاسم الأجلَّ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ لتربية المهابة، وتقوية داعي المأمور باستباق الخيرات، وتقوية استقلال الجُمل. والله أعلم.

---

(١) وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ١٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٠٨]؛ أظهر فيه على خلاف مقتضى الظاهر، فلم يقل: (فيسبُّوه)؛ لتربية المهابة، وتقوية وازع المنهيّ، ولم يقل: (ثم إلينا)؛ لتربية المهابة، وتعظيم الأمر وتحقيقه، وتشديد الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٧- ٥٨]، أظهر في مقام الإضمار، وكان مقتضى الظاهر أن يُقال: (وتوكَّل عليه وسبّح بحمده)؛ لتقدُّم ذكر اسم الربّ قبلُ، ولكنَّه أظهره باسمه الحيّ وما هو موصوف به من الصّلة (الذي لا يموت)؛ لتقوية داعي المأمور بالتوكُّل، ولتعليل الأمر؛ فقد وصف نفسه بالصفة التي تقتضي التوكُّل عليه وحده دون سواه، فإنَّ الحيَّ الذي لا يموت حقيق بأن يتوكّل عليه وحده، ولا يتوكّل على غيره من الأحياء الذين يموتون[(١)].

وفيه تعريضٌ بالكفار الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرُّهم، فإنَّ توكُّلهم إمّا على أمواتٍ غير أحياء، وإمَّا على أحياء يموتون لا محالة، فإذا مات المتوكَّل عليه صار المتوكِّل ضائعًا[(٢)].

(١) انظر: الكشاف، للزمخشري (٣/ ٢٨٨)، والمحرر الوجيز، لابن عطية (٤/ ٢١٦).

(٢) وانظر: التفسير الكبير، للرازي (٢٤/ ٤٤٦- ٤٤٧).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ١- ٢]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (واتبع ما يوحى إليك منه)، وصرّح بوصف الربوبية الدالّ على الإحسان في التربية؛ ليقوى على امتثال ما أُمِرَ به في الآية السالفة، فقال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: المحسن إليك بصلاح جميع أمرِك، فمهما أمَرك به فافعله لربك لا لهم، ومهما نهاك عنه فكذلك، سواء كان إقبالًا عليهم أو إعراضًا عنهم أو غير ذلك[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤- ٥٥]، أعاد ذِكر اسم الربّ في موضع الإضمار، وأضافه إلى ضمير المخاطبين؛ تقوية لداعي المأمورين بالإحسان؛ إذْ إنَّ مقام الإحسان رفيعٌ لا يُنال إلا بشحذ الهِمَم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]، أظهر في موضع الإضمار، ولم

(١) نظم الدرر، للبقاعي (١٥/ ٢٨٢).

(٢) وانظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٦/ ٥٣٧).

يقل: (وله ميراث السماوات والأرض)؛ لزيادة التمكُّن والتعظيم، ولتربية المهابة، وتقوية داعي المأمور بالنفقة.

وأظهر كذا في قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠]؛ لطول الفصل، ولتحقيق الوعد وتفخيمه، ولتقوية الرجاء.

وأظهر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]، لتربية المهابة، ولتقوية داعي المأمور، ولتستقلّ الجملة فتسير مسير المثل.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]، عبر بالجلالة وأعاد إظهارها موضع الضمير في ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ﴾؛ ترغيبًا في الامتثال؛ لِما للنفس من الشحّ بما يخالف المألوف(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ

(١) وانظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٩/ ٣٧٦).

عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ [الطلاق: ١- ٣]، فيه إظهار في مقام الإضمار أكثر من مرة؛ وذلك يدلُّ على خطورة الأمر، واسترعاء أسماعهم إليه، وتهويلًا لتعدّي حدود الله، وتربية للمهابة، وتقوية لداعي المأمور بإقامة الشهادة لله، وبالتقوى والتوكُّل، وتقوية للرجاء في رزق الله تعالى، وفي تفريجه الكروب. والله أعلم.

الغرض التاسع: التوسُّل:

ويُذكر الاسم الظاهر في مقام المضمر في الدعاء توسُّلًا به، كما في قول الذين أوتوا العلم: ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٨]، ولم يقولوا: (إن كان وعده)، كما أضافوه إلى ضميرهم؛ لحسن التوسُّل بأنهم مربوبون له ﷻ، وأنَّه هو ربُّهم، ولما فيه من إشعار بالتوحيد، فهو ربُّهم لا ربَّ لهم غيره. والله أعلم.

ومثله قول تعالى في حكاية قول مؤمني النصارى: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[المائدة: ٨٣- ٨٤]، فقولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[المائدة: ٨٤]؛ إذا كان من جملة دعائهم؛ فهو إظهار في مقام الإضمار، فعدلوا عن أن يقولوا: (وما لنا لا نؤمن بك)، (ونطمع أن تدخلنا)، إلى القول المحكي عنهم. وعلّة الإظهار في الأول التعظيم، والإشعار بعلَّة إيمانهم به؛ إِذْ هو الله الحقُّ المستحقُّ لإفراده بالعبودية

دون غيره، وعلّة إظهار الثاني مع التصريح باسم الربّ بعد الاسم الأجلّ التوسُّل بأنهم مربوبون له سبحانه، وهو مُربٍّ لهم مُنْعِم عليهم، ويؤكّده إضافته إلى ضميرهم مع ما فيه من إشعار بالاختصاص والعناية، فهو في الحقيقة توسُّل بسابق إنعامه عليهم أن يُتمّ عليهم النعمة بإدخالهم في زمرة الصالحين. فناسب ذكر الاسم الأجلّ في موضعه، وذكر اسم الربّ في موضعه. وفي الجمع بينهما تلذُّذٌ بذِكره. والله أعلم.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود: ٤١]، كان مقتضى الظاهر أن يقول: (إنه غفور رحيم)، ولكن صرَّح بالاسم الأجلّ؛ توسُّلًا، وتقوية لرجائهم في النجاة، وتأنيسًا، ومقام الشدّة التي هم فيها يقتضيه. وفي العدول إلى اسم الربّ وإضافته إلى ضمير المتكلّم إشعارٌ بالعلّة، فكما استتبعت الربوبية الإنعام بالإيمان أولًا؛ تستتبع الإحسان والإنجاء لأوليائه ثانيًا.

فإذا كان في مقام الاستغفار والاعتذار عن الذنب؛ فإنه يحسن تكرير اسم الربّ ﷻ توسُّلًا به واسترحامًا، كما في قول يوسف ﷺ[1]: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ

(١) وهذا هو الذي يُرجّحه الباحث أنَّ يوسف ﷺ هو قائل هذه العبارة، ومن أدلَّته الواضحة طريقة إيراد أسماء الله تعالى وصفاته، فالأشبه أنَّ هذا كلامُ عارفٍ بالله وأسمائه وصفاته، وبسُنَنِه الكونية، لا كلام امرأة من قوم مشركين كان من شأنها ما أخبرت به السورة الكريمة. انظر: «كشف الريب عن قائل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾»؛ للباحث. منشور بمركز تفسير على هذا الرابط:
=

﴿ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[يوسف: ٥٣]، فأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: (إنه غفور رحيم)؛ تلذُّذًا واستئناسًا بذكر اسم الربِّ المحبوب، وتقوية للرجاء في المغفرة، وتوسُّلًا بذكر اسم الربّ سبحانه، وأضاف اسم الربّ إلى ضمير المتكلّم تشرُّفًا وإقرارًا بربوبيته إيّاه، وإشعارًا بعلّة الحكم؛ أنَّ من مقتضى الربوبية المغفرة والرحمة الواسعة، وتعليمًا لهم أنَّ الذنب لا يُسقِط عن المذنب أنه مربوب.

ولعلّ من الأمثلة الصالحة لذلك قوله تعالى عن بعض المُبتَلَيْنَ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾[القلم: ٣١- ٣٢]، فكرّروا اسم الربّ مصرّحين به على خلاف مقتضى الظاهر، ولم يقولوا: (عسى أن يبدلنا)؛ وأضافوه إلى ضميرهم لِما فيه من صريح التوسُّل إلى الله تعالى بربوبيته، وإظهارُ أنهم مربوبون له محلٌّ لرحمته، ولِما في ذلك مِن تذلُّلٍ وتخضُّعٍ، ولِما من مقتضيات هذه الربوبية من الرحمة، فهو أدلُّ على التوسُّل والاسترحام. والله أعلم.

=

https://tafsir.net/research/84/

الغرض العاشر: تقوية الرجاء:

قد يفيد التصريح بالاسم الظاهر في موضع الضمير تقوية الرجاء، كما تقول الأم لابنها: (ستعطيك أمُّك كذا وكذا)، بدل: (سأعطيك) كما هو مقتضى الظاهر، فالتعبير بالأمومة يقوّي رجاءه في موعودها. ولله المثل الأعلى.

وإذا كان تكرار الاسم للتوسُّل به والاستعطاف كائنًا من المتوسِّل؛ فإنَّ تقوية الرجاء كائنةٌ من المُرجِّي أو المبلِّغ عنه.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أعاد ذكر البارئ ﷻ؛ تقوية لرجائهم قبولَ توبتهم وتعظيمًا، دلَّ عليه إضافته إلى ضمير المخاطبين.

وليس ثمَّ ما يلتبس في عَوْد الضمير، فلو أضمر ما تُوهِّم عودُه لغير البارئ ﷻ، وإن تقدَّم ذكر موسى ﷺ، وذكر العجل؛ ولذا لا يوافَقُ الراغب في بعض قوله: «إن قيل: لِمَ أعاد ذِكر (بارئكم)، والإتيان بالضمير في مثله أحسن؟ قيل: إنما يحسن الضمير إذا لم يشتبه ولم يقصد بالتكرير تعظيم الأمر، وكان ذلك في جملة واحدة أو ما حكمُه حكمُ الجملة الواحدة، فأمّا إذا لم يكن كذلك فتكريره أحسن. وقد حصل ههنا الأحوال الثلاث فإنه جرى ذكر موسى والعِجْل، فلو

قيل: (عنده)؛ يصح تَوهُّم إرادة أحدهما، ثم قد علم أنّ المقصود في مثل هذا الموضع تفخيم الأمر»[1].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، حيث أظهر فلم يقل: (ورضوان منه)؛ لتقوية رجائهم، ولتفخيم الرضوان، وتشريف المرضيّ عنهم. ولم يقل: (وهو بصير بهم)؛ تربية للمهابة الميسِّرة شأن التقوى، ولتعليل الحُكم، أي إنّ من مقتضيات إلهيته بصره بعباده، وأظهر العباد في موضع الإضمار؛ لبيان أنَّ مَن فعل ذلك كان محقّقًا لرسم العبودية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، أظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (وما النصر إلا من عنده)؛ ليتأتى تقوية رجائهم بذكر الأسماء الحسنى الثلاثة؛ للتنويه بالعناية البالغة بهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾[مريم: ٩]، وكان مقتضى الظاهر أن يُقال: (كذلك قلتُ)، ولكن ذكر

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٩٤).

اسم الرب المضاف إلى ضمير زكريا ﷺ؛ تقوية لرجائه حصولَ الولد، فقول الرب حقٌّ ووعده صدق[1]. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الزمر: ٣٥]، أظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: (ليكفر عنهم) على مقتضى الظاهر؛ إِذْ تقدَّم إظهار اسم الربّ في الآية السابقة؛ وذلك لتقوية رجائهم تكفيرَ أسوأ ما عملوا وتوفيتهم أجرهم بأحسن ما عملوا، تمكينًا لاطمئنان نفوسهم بوعد ربهم[2]. وناسب تقوية رجائهم بإظهار الاسم الأجلّ أنَّه وعدهم بتكفير الأسوأ، وإثابتهم بالأحسن. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ خرج نظم الآية مخرجًا في غاية الحسن، حيث أضمر أوَّلًا في موضع الإظهار على طريقة الالتفات، فمقتضى ظاهر الكلام المحكي بعد ﴿قُلۡ﴾ أن يكون: (قل يا عباد الله)، ولكنّه حكاه بالمعنى ليتأتى إضافتهم إلى ضمير المتكلّم؛ إشعارًا بأنَّ

(١) وانظر: فتوح الغيب، للطيبي (٩/ ٥٨٠).

(٢) وانظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٤/ ١١).

الخطاب منه إليهم مباشرة دون واسطة. ووصفهم في هذا المقام بالعباد للإشعار بأنَّ الذّنب لا يُخرجه عن كونه عبدًا لله تعالى.

ثم عاد إلى الإظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات أيضًا، ولم يقل: (لا تقنطوا من رحمتي)؛ للدلالة على أنَّ ذكر الاسم الأجلّ مقصودٌ في الحكاية ولا يُجزئ أن يكنَّى عنه بالضمير، لأنه لو خرج محكيًّا باللّفظ لكان حقُّه: (يا عباد الله الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمته)، فعُلِم أنَّ الإظهار في موضع الإضمار مراد في الحكاية. وإنما أُضيفت الرحمة إلى الاسم الأجلّ لتفخيمها، وتحقيقها، ولتقوية داعي المأمور بالتوبة، ولتقوية رجائه قبولَها.

ثم استمرّ على الإظهار، فلم يقل: (إنه يغفر الذنوب جميعًا)؛ لزيادة التمكُّن، وتعظيم أمر المغفرة، ولتعليل الحكم، والإشعار أنّ ذلك من مقتضيات الإلهية؛ كما قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾[الزمر: ١٢]، ولتسير الجملة مسير الموعظة الجامعة المستقلّة. والله أعلم.

قال النيسابوري: «ولا يخفى ما في الآية من مؤكِّدات الرحمة؛ أوّلها: تسمية المذنِب عبدًا، والعبودية تُشعر بالاختصاص مع الحاجة، واللائق بالكريم الرحيم إفاضة الجود والرحمة على المساكين. وثانيها: من جهة الإضافة الموجبة للتشريف. وثالثها: من جهة وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ

﴿أَنفُسِهِمْ﴾؛ كأنه قال: يكفيهم من تلك الذنوب عود مضرّتها عليهم لا عليّ. ورابعها: نهاهم عن القنوط، والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم. وخامسها: قوله: ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ مع إمكان الاقتصار على الضمير، بأن يقول: (من رحمتي)، فإيراد أشرف الأسماء في هذا المقام يدلّ على أعظم أنواع الكرم واللطف. وسادسها: تكرير اسم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، مع تصدير الجملة بـ﴿إِنَّ﴾، ومع إيراد صيغة المضارع المنبئة عن الاستمرار، ومع تأكيد الذنوب بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أي حال كونها مجموعة. وسابعها: إرداف الجملة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾»[1].

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الشورى: ٣٦]، فيه إظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: (وعليه يتوكلون)؛ ليتأتى إضافة اسم الربّ إلى ضميرهم؛ تعظيمًا له، وتفخيمًا للتوكُّل وشأنه، وتشريفًا لهم، وتقوية لرجائهم ثوابَ توكُّلهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]، أظهر في موضع الإضمار مرّتين، فلم يقل: (عسى أن

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٦/ ١٠).

يكفر عنكم)، كما هو مقتضى الظاهر؛ بل صرَّح باسم الربّ المضاف إلى ضميرهم، وذكر الربوبية بعد الألوهية، وفي ذلك تقويةٌ لرجائهم تكفيرَ سيئاتهم، وتشريفٌ لهم بإضافتهم لاسم الربّ الدالّ على كمال العناية، وإشعارٌ بعلّة الحكم، فمن مستتبعات الربوبية الحقّة أن يكفّر سيئات مربوبيه إذا تابوا وأنابوا.

ثم أظهر في موضع الإضمار مع الانتقال من الربوبية إلى الألوهية، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ ولم يقل: (يوم لا يخزي النبيَّ)؛ وذلك للزيادة في التمكين، والتعظيم، ولتقوية الرجاء، وللإشعار بعلة الحُكم. والله أعلم.

الغرض الحادي عشر: التلذذ والاستئناس:

إذا أحبَّ المرءُ أحبَّ تكرير اسم محبوبه، تلك حقيقةٌ لا يختلف في صحّتها عاقلان.

والله ﷻ أعظم محبوب للمؤمنين به، وحبُّهم له يفوق حبَّ كلِّ محبٍّ سواهم لمحبوبهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥]، أي أنَّ المؤمنين بالله أشد حبًّا لله من متخذي هذه الأنداد لأندادهم[1].

(١) انظر: جامع البيان، للطبري (٣/ ١٦).

ومن الأغراض المرعيّة لوضع الاسم الظاهر موضع الضمير على خلاف مقتضى الظاهر: أنَّ يكون المتكلّم مُعظِّمًا للمذكور مُحبًّا متلذِّذًا بتكرير اسمه، على حدّ قول مهيار الديلميّ[1]:

أَعِدْ ذكر نعمانٍ أَعِدْ إنّ ذِكرَه من الطِيب ما كرَّرته يتضوَّعُ

وهذا كثير في أشعار العذريين، ولعلَّ أكثرهم في ذلك قيس بن الملوّح، فمن ذلك قوله:

وعهدي بليلى وهي ذات مؤصّد تردُّ علينا بالعشيّ المواشيا
فشبَّ بنو ليلى وشبَّ بنو ابنها وأعلاق ليلى في فؤادي كما هيا

والتعبير بالظاهر في مثل هذا أبلغ من التعبير بالمضمر.

قال ابن السيد البطليوسي معلِّقًا على قول جرير:

لم تتلفَّعْ بفضل مئزرها دَعْدُ ولم تُسْقَ دعْدُ في العُلَب

قال: «والعُلب: جمع علبة، وهو إناء يُصنع من جلود الإبل. وصف أنّ دعدًا نشأت في الرفاهية والنعمة، ولم تكن من البدويات اللواتي يتلفعن بالمآزر، ويشربن الألبان في العُلب... وكرَّر ذكر دعد ولم يضمرها؛ تنويهًا بذِكرها، وإشارة أو تلذذًا لاسمها واستطابة، كما قال الآخر:

---

(١) انظر ديوانه (٢/ ١٨٤)، وهذه رواية الديوان. وفي بعض المصادر:

أعِد ذكر نعمان لنا إنّ ذكره من المسك ما كرّرته يتضوع

عِذاب على الأفواه ما لم يذقهمُ عدُوٌّ وبالأفواه أسماؤهم تحلو»[(١)].

ونقل الخفاجي عن شيخه أبي العلاء المعري تعليقه على بيت الحطيئة:

ألا حبـذا هنـدٌ وأرض بهـا هنـدٌ وهندٌ أتى من دونها النأي والبُعد

قال: «مِن حبه لهذه المرأة لم يرَ تكريرَ اسمها عيبًا، ولأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوةً؛ فلم يَرَ مِن الاعتذار للتكرير إلا هذا العذر»[(٢)].

وجعل القاضي عياض من ذلك ما ورد في حديث أم زرع[(٣)] مِن تكرارها لاسم أبي زرع في فصول كلامها مصرِّحةً به غير مضمرة له، ولا مكتفية بما تقدَّم من إظهاره: إمّا لعِظَمِه في نفسها، وبَأْوِها به وفخرها، أو لحلاوة ذِكره في فمها، ومكانته من قلبها، فتكرار اسم الحبيب مما يستلذّ به الناطق[(٤)].

والتلذُّذ بذِكر أسماء الله تعالى وتكريرها مظهرة يصلح أن يكون مرادًا فيما وقع في القرآن من حكاية كلام الأنبياء والصالحين والمؤمنين ونحو ذلك.

(١) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي (٣/ ١٩٥). والبيت في ديوان الحماسة.

(٢) سر الفصاحة، للخفاجي، ص١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥١٨٩)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٤٤٨).

(٤) انظر: بغية الرائد لما تضمَّنه حديث أم زرع من الفوائد، للقاضي عياض، دار الذخائر، القاهرة، ط١، ١٤٣٩هـ= ٢٠١٨م، ص٣٧٠.

فمن ذلك قول الرجل الصالح لصاحب الجنتين وهو يحاوره: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[الكهف: ٣٨]، فكرَّر اسم الربّ تلذُّذًا، كما تلذّذ صاحب الجنتين بالاعتزاء لجنتيه وماله ونفره. ومما يرشّح غرض التلذُّذ ضمِيرَا الفصل مع ما يشعران به من الاختصاص؛ إِذْ معنى الكلام: (لكنْ أنا هو الله ربي)، فذكره بالضمير وبالاسم الأجلّ وبشعار الربوبية المضاف إلى ضمير المتكلّم، ثم كرّره مرة أخرى. والله أعلم.

ولعلّ من الاستئناس قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩]، إن كان قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ من مقول الذين ثبتوا مع طالوت ففيه تقوية لرجائهم النصرَ مع قلّتهم وكثرة عَدوّهم، ومع ما هم فيه من كربٍ، وفيه كذلك إشعار بعلّة الحكم، فإنّ مقتضى ألوهيته معيَّتُه الخاصة للمصابرين في نصرة دينه. وفيه تقوية استقلال التذييل ليخرج مخرج المثل. وإلى هذه الأغراض يمكن حمله على تلذّذهم واستئناسهم بذكر الاسم الأجلِّ. والله أعلم.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾[الأنعام: ٨٠]، فيه إظهار في موضع الإضمار في حكاية قول إبراهيم ﷺ، حيث قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ولم

يقل كما هو مقتضى الظاهر: (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء شيئًا وسع كلَّ شيء علمًا)، فصرّح باسم الربّ -تقدَّست أسماؤه- المضاف إلى ضمير إبراهيم ﷺ في الموضعين؛ إظهارًا لرباطة جأشه وقوة يقينه في الله تعالى ربّه أنَّه يكلؤه منهم ويحفظه من كيدهم. وفيه إشعارٌ بتلذُّذه واستئناسه بتكرير اسم الربِّ ﷻ. والله أعلم.

ومنه أيضًا قول الله تعالى في حكاية قول أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾[الأعراف: ٤٣]، أظهروا في مقام الإضمار، فلم يقولوا: (وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا لقد جاءت رسله بالحقّ)؛ تلذُّذًا بذكر اسمه، ومناسبةً للثناء عليه، ومقام الحمد يقتضي الإكثار من ذكر اسم المحمود، ولِما في التصريح بالاسمين الأحسنين من الإشعار بالعلّة؛ إذْ إنعامه عليهم بالهداية، وإرسال رسله إليهم من مستتبعات ألوهيته وربوبيته الحقَّة. والله أعلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨- ٨٩].

وقع في حكاية قول شعيب ﷺ والذين آمنوا معه الإظهار في مقام الإضمار، فلم يقولوا: (بعد إذ نجانا منها)، ولم يقولوا: (إلا أن يشاء، وسع كلّ شيء علمًا، عليه توكّلنا)، بل ما زالوا يكرّرون الاسم الأجلَّ واسمَ الربِّ مرارًا؛ حتى جمعوهما فقالوا: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾. ومن أغراض ذلك التلذُّذ والاستئناس بذِكْر الاسمين الأجلّين الدالين على كمال ألوهيته وكمال ربوبيته ﷻ.

وقوله تعالى في حكاية قول هود ﷺ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[هود: ٥٦- ٥٧]، انظر كيف كرّر هود ﷺ اسم الربّ ﷻ أربع مراتٍ مضافًا إلى ضميره، وفيه من الاستئناس والتلذُّذ ما فيه، وقراءة الآيتين على نظمهما تبعث في النفس سكينة واطمئنانًا وقوّة يقينٍ لا تخطئه آذانُ القلوب، ولو حاولتَ أن تضع الضمير في موضع الاسم الظاهر فيها أو في بعضها لما كان له نفس الأثر.

وقوله تعالى حكاية عن يوسف ﷺ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٧- ٣٨]، فيه إظهار في محلّ الإضمار في أكثر من موضع، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (لا يؤمنون به)؛ تهويلًا

للخطب، واستقباحًا لفعلهم. ولم يقل: (ما كان لنا أن نشرك به)؛ تعظيمًا، وإشعارًا بعلّة الحكم. ولم يقل: (مِن فضله)؛ تعظيمًا للمتفضِّل ﷻ، وتفخيمًا للفضل، وتشريفًا للمتفضَّل عليهم. وفي تكرار ذكر الاسمين الأحسنين تلذُّذٌ واستئناسٌ. وناسب إظهار ذلك التلذُّذ مقام الدعوة إلى الله، ومقام الكرب لمكانهم في السجن. والله أعلم.

وقوله تعالى في حكاية قول يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٦- ٨٧]؛ لمّا كان المقام مقام حزن، انظر كيف تكرّر الاسم الأجلّ في موضع المضمر أكثر من مرة، فلم يقل: (وأعلمُ منه)، ولم يقل: (ولا تيأسوا من رَوْحه)، وكذا فالمقام مقام رغبةٍ وتمنٍّ وتأميل، فكأنه يستأنس بذكر الله تعالى ويؤنِّس أبناءَه به. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١- ١٢]، فتكرّر ذِكر الاسم الأجلِّ مرارًا مصرحًا به في مقام المضمر؛ إِذْ لمّا هدَّدهم كفارُ أقوامهم كان المقام مقام كربٍ وخوف، فاستأنسوا بتكرير ذكر الاسم الأجل. والله أعلم.

وقوله تعالى في حكاية قول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[مريم: ٤٨]، أظهر الاسم الأجلَّ في موضع الإضمار، فلم يقل: (وما تدعون من دونه)؛ لزيادة التمكُّن، ولاستعظام شركهم، وتقبيح فعلهم، ثم كرّر ذكر اسم الربّ المضاف إلى ضمير المتكلّم؛ تعليلًا لدعائه وإخلاصه، وتشرُّفًا واعتزازًا بربوبية الله إيّاه[(١)]، وتوسُّلًا به، وتلذُّذًا بتكريره، واستئناسًا بذكره.

وفيه كذلك تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء آلهتهم[(٢)].

وقوله تعالى في حكاية قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، أظهر اسم الربّ المضاف إلى ضمير المتكلّم؛ تعظيمًا، واعتزازًا وتشرُّفًا بربوبية الله إيّاه، لما تقدّم من قول فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٤٩- ٥٠]، وفيه استئناس وتلذُّذ بتكرير ذكره؛ لما في الموقف من شدّة، وفيه إشعار بعلّة الوصف؛ إذْ إنَّ من مقتضى كمال ربوبيته ألّا يضلّ ولا ينسى[(٣)]، وفيه تقوية استقلال جملة التذييل فتصلح لتجري مجرى المثل والحِكَم الجوامع. والله أعلم.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٦/ ١٢٣).

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري (٣/ ٢٢).

(٣) وانظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة (٣/ ٣٩٤).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل: ٤٠]، فيه إظهار في موضع الإضمار واقع في حكاية قول سليمان ﷺ: حيث كرر قوله: ﴿رَبِّى﴾ ولم يقل: (فإنه غني كريم)، وفيه تأكيد للاعتراف بتمحُّض الفضل المستفاد من قوله: ﴿فَضْلِ رَبِّى﴾[1]، وفيه إلى ذلك تلذّذه ﷺ بتكرير اسم الرب ﷻ المضاف إلى ضمير المتكلّم المشعر بخصوص العناية. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾[فاطر: ٣٤]، وهو واقع في سياق حكاية كلام أهل الجنة، وفي تصريح بالظاهر في موضع الضمير، فلم يقولوا: (إنه غفور شكور) على مقتضى الظاهر. ومن أغراض ذلك الإشعار بعلّة الحُكم، فمن مقتضى ربوبيته أنّه غفور لذنوبهم وتقصيرهم، شَكور لأعمالهم، وفي إضافته إلى ضميرهم إشعار بخصوصية النسبة، وفيه كذلك التلذُّذ بتكرير ذكر اسم محبوبهم ﷻ. والله أعلم.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٩/ ٢٧٢).

هذا، وقد أشرنا في بحثٍ سابق[1] إلى أنَّ تأمُّل طريقة القرآن الكريم في حكاية أقوال الأنبياء والأولياء والصالحين يُفضي إلى الإقرار بأنَّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٢- ٥٣]؛ لا يُتصوَّر صدوره بهذه العبارة إلا ممن امتلأ قلبه بمحبة الله تعالى، فهي عبارة مستأنِسٍ بالله، متلذِّذ بذكر اسم الربِّ ﷻ، فيكرّره ظاهرًا مضافًا إلى ضمير المتكلِّم، وهذا لا يتصوَّر أن تقوله امرأة العزيز فهي من قومٍ مشركين كما صرَّحت بذلك السورة الكريمة، فإن قيل: إنّ المشرك قد يعرف الله تعالى؛ أجَبْنا عنه بأنَّا نُسلِّم بأنَّ المشرك يعرف الله ﷻ معرفة عامَّة، ويُقِرُّ لله ﷻ بأنَّه الخالق، ولكن عباراته عن هذا الربِّ لن تفيض إيمانًا ومعرفةً بالله ﷻ، وسُنَّتِه في خلقه، وهذا المشرك الذي يعبد أربابًا متفرّقين لا يقول: ﴿رَبِّيٓ﴾ يُوحِّدها ويُضيفها لضمير المتكلِّم ويكرّرها مُصرِّحًا بالاسم الظاهر في موضع الضمير، مع ما ينضوي عليه من إيمانٍ عميق، ثم أنَّى لمن كان يعبدُ أسماءً يُسمِّيها بما توارثه عن آبائه وأجداده أن يمتلئ قلبه بمعرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته؟

(١) «كشف الريب عن قائل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾»، للباحث. منشور بموقع مركز تفسير على هذا الرابط: https://tafsir.net/research/84

والتلذُّذ بذكر أسماء الله تعالى وتكريرها مُظهَرة في موضع الإضمار إنما يقع في القرآن الكريم من حكاية كلام الأنبياء والصالحين والمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣]، لا تُخطئ عينُ القلب البصير الحُكمَ له بأنَّه مُقتبَس من المشكاة نفسها التي اقتبست منها عبارات الأنبياء والصالحين السابقة، والذي يتأمَّل ذلك لا يتردَّد في نسبتها إلى نبيٍّ أو وليٍّ أو عبدٍ صالحٍ ملأ الإيمانُ قلبه، ومَلَكَ عليه مشاعره. فقد أظهر اسمَ الربِّ المضافَ إلى ضمير المتكلِّم وكرَّره توسُّلًا واستئناسًا والتذاذًا وتشرُّفًا واعتزازًا، وإشعارًا بخصوصية العناية، وتقويةً لرجاء المستغفرين، وإشعارًا بعلَّة الحُكم؛ إِذْ من مقتضى الربوبية الرحمةُ بالمربوب وجبرُ خطئه بفتح الباب للتوبة، والتفضُّل بقبولها من التائبين. فهو قول صادرٌ من محبوبٍ يتكلَّم بملء قلبه عن محبوبه، فأنَّى مثل هذا القول الرفيع لامرأةٍ قومها يعبدون أربابًا متفرِّقين؟ وأنَّى هذه المحبة الفيَّاضة لامرأة شغلتها الصُّوَر، واستغرقتها الغفلة؟!

الغرض الثاني عشر: التلذيذ والتأنيس:

ومما يمكن إلحاقه بالتلذُّذ والاستئناس: التأنيس والتلذيذ، فالتلذُّذ والاستئناس يقعان في كلام المحبين، والتأنيس والتلذيذ من كلام المحبوب عن نفسه إِذْ عُلِم أنَّهم يلتذُّون ويستأنسون بذِكْر اسمه، ولمَّا كان المتكلِّم هو مَن يعلم السرّ وأخفى، وهو مَن لا يخفى على علمه شيء في الأرض ولا السماء؛

فقد استقام أنَّ تأنيسهم بذِكْر اسم محبوبهم مما يصحُّ أن يكون غرضًا للإظهار في مقام الإضمار.

ولعلّ من الآيات التي تحتمل التخريج على هذا الغرض قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، إِذْ فيها أربعة مواضع صُرِّح فيها بالاسم الأجلّ في موضع الضمير، وبها يكون الاسم الأجلُّ قد تكرّر في الآية الكريمة خمس مرات، ومع أنَّ لمخالفة الظاهر في كلٍّ منها أغراضًا متنوّعة، فلعلَّ مما يصحّ أن يكون غرضًا لهذا التكرار تأنيس الذين آمنوا بذِكر اسم محبوبهم الأجلِّ، والمناسبة ظاهرة إِذْ أخبر عنهم أنَّهم أشدُّ حبًّا لمحبوبهم ﷻ من حُبِّ المشركين لشركائهم من دون الله. والله أعلم.

ومما يمكن أن تستشعره قلوب المحبين من ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، فلتكرير قوله: ﴿رَّبُّكَ﴾ ثلاث مرّات وَقْع عجيب، وتأثير أخّاذ لا يخطئه مَن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد. فلعلّ من أغراض هذا التكرار ومخالفة مقتضى الظاهر بالتصريح باسم الربّ المضاف إلى ضمير النبي ﷺ تأنيسه وتأنيس أَتباعه بذلك. والله أعلم.

ومما هو ظاهرٌ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فلم يقل: (بذكره)، ولم يقل: (به)؛ ولكن أعاد (ذكر الله) ظاهرًا؛ تأنيسًا لهم، وتطمينًا لقلوبهم به، والآية مبيّنة لكون قلوبهم تطمئن بذكر الله. وشتّان ما بين نظم الآية على ما هي عليه، وعلى ما لو خرجت على مقتضى الظاهر، بإضمار ذكر الله، أو بإضمار الاسم الأجلِّ. فتأمل!

ومن الأمثلة الصالحة للتأنيس قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩]، ذكر الاسم الظاهر في موضع المضمر على طريقة الالتفات في موضعين، وكان مقتضى الظاهر: (فسبّح بحمدِنا)، (واعبُدنا)، ومن أغراض هذا: التأنيسُ بذكر الاسم الأحسن؛ لما ضاق صدره من أقوالهم وتكذيبهم. وإضافته إلى ضمير النبي ﷺ إشعار بالعناية والاختصاص. ومن أغراضه كذلك: دفع إيهام التشريك، كما يأتي بيانه في موضعه بإذن الله.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩]، لم يقل: (قبل أن تنفد) أو: (قبل أن تنفد كلماته)؛ تلذيذًا بتكرير ذكر اسم الرب المضاف إلى ضمير النبي ﷺ، وفيه أيضًا إشعار بالعِلَّة، وأن الكلمات بإضافتها إلى اسم الربِّ حقيق بأن تكون غير متناهية[1].

(١) وانظر: فتوح الغيب، للطيبي (٩/ ٥٥٦).

وشبيه بهذا المثال قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[سورة الضحى]، إذْ لما كان المقام مقام شدّة على النبي ﷺ بانقطاع الوحي عنه، وظنّه أنَّ ربَّه قلاه؛ نزلت السورة الكريمة مؤنسة له ﷺ، فناسب تكرير ذكر الاسم الأحسن (الربّ) مضافًا إلى ضمير النبي ﷺ. والله أعلم.

ولعلّ منه أيضًا قول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾[العلق: ١- ٣]، حيث أظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: (اقرأ وهو الأكرم)؛ وذلك لتأنيس النبي ﷺ بذكر اسم الربّ المضاف إلى ضمير النبي ﷺ، والمقام مقام شِدَّة وجَهْد ورجفة كما وصفه النبي ﷺ: «فأخذني [يعني جبريل عليه السلام] فغطّني، حتى بلغ مني الجَهْد»؛ الحديث[1]، وفيه: «فرجع بها رسول الله ﷺ يَرجُف فؤادُه».

الغرض الثالث عشر: رفع اللبس:

ومن أغراض التصريح بالاسم الظاهر في موضع المضمر أن يكون مجيء الكلام بالإضمار على مقتضى الظاهر مما يُمكن أن يُتوهَّم فيه عَوْد الضمير على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٠).

ما لا يعود عليه، فلو أضمر لأَوْهم، وحينئذ يكون مقتضى الحال أن يُظهر؛ رفعًا لِلَّبْس وتتميمًا للبيان.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فمقتضى الظاهر أن يقول: (فإنه عدوٌّ للكافرين)، ولو جاء على مقتضى الظاهر لم يُؤمَن معه اللبس، فقد يتوهَّم أن الضمير عائد على أقرب مذكور (ميكال)، أو حتى (جبريل)، أو على اسم الشرط ﴿مَن﴾، ومع أنَّ المعنى في ميكال وجبريل صحيح فعداوتهما للكافرين ثابتة؛ فإنَّ المراد أنَّ الله عدوٌّ للكافرين، فكان في التصريح بهذا المراد رفعٌ لِلَّبس المحتمل.

قال أبو حيان: «وأتى باسم الله ظاهرًا، ولم يقل: (أنه عدوّ للكافرين)؛ لاحتمال أن يُفهم أن الضمير عائد على اسم الشرط فينقلب المعنى، أو عائد على أقرب مذكور، وهو ميكال، فأظهر الاسم لزوال اللَّبْس، أو للتعظيم والتفخيم؛ لأن العرب إذا فخّمَت شيئًا كررته بالاسم الذي تقدّم له»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]،

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (١/ ٥١٦)، وانظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٣٠٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (١/ ٦٢٤).

أظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: (واعلموا أنه يحول)، ولو قاله فلا يكاد يغمض في فهم السامع أنَّ الذي يحول بين المرء وقلبه هو الله ﷻ، وإن كان الرسول ﷺ أقرب مذكور، فكان الإظهار في هذا المقام رافعًا لأدنى احتمالٍ لِلَّبْس. وحسُن كذلك؛ لأنَّ له أغراضًا أخرى؛ منها زيادة التمكُّن، وتربية المهابة وتقوية الوازع، ومنها الإشعار بعلّة الحُكم فإن من مقتضيات الإلهية القدرة المطلقة على تصريف القلوب وتقليبها. نسأل اللهَ الثبات على الحقّ والطاعة. آمين.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢- ٣]، فيه إظهار في موضع الإضمار؛ إِذْ كان مقتضى الظاهر أن يُقال: (إِذْ ناداه نداءً خفيًّا)، ولكن قد يتوهّم أن المنادِي هو الربّ، فصرّح ليستبين المنادِي والمنادَى. وكذلك فإنّ من أغراض هذا الإظهار تعظيمَ المنادَى، وتفخيمَ النداء، وتشريفَ المنادِي وهو زكريا ﷺ؛ بإضافة الربّ إلى ضميره، بعد وصفه بالعبودية. وفيه كذلك إشعار بعلة النداء؛ إِذْ إنَّ من مقتضيات ربوبيته ﷻ أن يكون مفزعَ مربوبيه وقاضيَ حاجاتهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٤- ٤٥]، لم يضمر اسم الرحمن في الآية الثانية؛ لتعيُّن إظهار اسم اللعين، وهذا لا يليق، ولو

أضمرهما لَوَقَع اللبس ولَفَسد النَّظْم لا محالة، فلم يبق إلا إظهار اسم الرحمن، واسم اللعين. وهذا من ضروب الائتلاف.

ثم إنَّ التعبير باسم الرحمن فيه إشعارٌ بأن وصف الرحمانية لا يعني تعيُّن منع حلول العذاب بالعاصين(١)، وفيه تفظيعٌ لذنب أبي إبراهيم بعبادته ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابديه شيئًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٢٣]، فيه إظهار في موضع الإضمار أكثر من مرة، فقال: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، ولم يقل: (يخشونه)، وذلك لتربية المهابة، ولتقوية الرجاء، ولتشريفهم بإضافة اسم الرب إلى ضميرهم، ولرفع اللّبس بتوهُّم عود الضمير إلى الكتاب على طريق المجاز، وهو أقرب مذكور.

وقال: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (إلى ذكره)؛ لتعظيم المذكور، وتفخيم الذِّكر بإضافته للاسم الأجلّ، وتشريف المذكور، وفيه أيضًا رفع اللبس بتوهُّم عود الضمير إلى الكتاب.

(١) وانظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة (٣/ ٣٣٦).

وقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (هُداه)، للتعظيم والتفخيم، وقال: ﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: ولم يقل (يُضْلِل)؛ لتربية المهابة، وتقوية داعي المأمور به من ذكر الله تعالى. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[الفتح: ٢٧]، فيه إظهار في موضع الإضمار، فلم يقل: (إنْ شاء آمنين)؛ حتى لا يتوهّم أن الضمير عائد إلى الرسول ﷺ، فهو أقرب مذكور. والله أعلم.

ومن أغراضه أيضًا في هذا الموضع بيان انفصال الجملتين، فجملة: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[الفتح: ٢٧]، ليست بيانًا للرؤيا؛ لأن صيغة القَسَم لا تُلائم ذلك. والأحسن أن تكون مستأنفة استئنافًا بيانيًّا عن جملة: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ [الفتح: ٢٧]؛ أي: سيكون ذلك في المستقبل لا محالة؛ ولذا يُستحسن أن يُوقَف على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، ويستأنف: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، فأظهر في موضع الإضمار، ولم يقل: (والرسول يدعوكم لتؤمنوا به)؛ لئلا يُتوهَّم أنَّ الضمير عائد على الرسول ﷺ، بدليل أنَّه لمّا

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٩٩).

كان الالتباس مأمونًا بعدُ أضمرَ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الحديد: ٩].

وعبَّر بالربِّ وأضافه إلى ضمير المخاطبين؛ إشعارًا برحمته بهم بما يغذوهم به من النعم، ويمنُّ عليهم به من الوحي، ومخاطبة لما هو مركوز في فِطَرهم من فحوى الميثاق الذي أخذه عليهم: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾[الأعراف: ١٧٢]، فإنّه هو الرب الذي أخذ ميثاقهم على ربوبيته لهم، وهو الذي أنزل على عبده الآيات البينات ليخرجهم من الظلمات إلى النور. والله أعلم.

الغرض الرابع عشر: دفع توهُّم التشريك في مقام التوحيد:

وهو من الأغراض التي لم ينصَّ عليه المتقدّمون صراحةً، وإن ألمح إليه الفخر الرازي، في أثناء تفسير سورة الكوثر، حيث قال: «كان الأليق في الظاهر أن يقول: (إنَّا أعطيناك الكوثر فصل لنَا وانحر)؛ لكنه ترك ذلك إلى قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ لفوائد؛ **إحداها**: أنّ وروده على طريق الالتفات من أمّهات أبواب الفصاحة، **وثانيها**: أنَّ صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم: يأمرك أمير المؤمنين، وينهاك أمير المؤمنين، **وثالثها**: **أنّ قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ ليس في صريح لفظِه أنَّ هذا القائل هو الله أو غيره، وأيضًا كلمة (إنّا) تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظِّم نفسَه، فلو قال: (صلِّ لنا)؛ ما نفى ذلك الاحتمال، وهو أنه ما كان يعرف أن هذه**

الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك، فلهذا ترك اللفظ، وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال، وتصريحًا بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى»[(١)].

وقال الباحث أحمد تيجان صلاح: «فعدل عن ضمير التكلّم (إنّا) إلى الاسم الظاهر (ربّ) حماية للتوحيد؛ إذْ لو جرى على الأصل لكان: (فَصَلِّ لنَا)، ولو كان كذلك لتوهّم المتوهّمون أنّ معه آلهة أخرى؛ ولذلك فإننا نجد القرآن يدفع هذه الشبهات، لأنه إنما نزل لغاية كبرى هي إفراد الله بالعبادة، فحاشاه أن يأتي في أسلوبه ما يُوهم تعدُّد الآلهة. ولهذا فإن ضمائر العظمة -وهي التي تأتي على صورة الجمع- لا تجدها في القرآن إلا فيما يدلّ على قدرة الله تعالى وعظيم نعمائه على عباده. والقرآن حين يدعو إلى عبادة الله في سياق مبدوء بضمير العظمة -كما في الآيات السابقة- فإنك تجده يتحوَّل إلى الإفراد ليناسب التوحيدُ التوحيدَ. وتلك فائدة أخرى من فوائد الالتفات لم أجد من نصَّ عليها»[(٢)].

ومع وجاهة ما ذهب إليه؛ فإنَّه مسبوقٌ في الإشارة إلى هذا الغرض من أغراض الالتفات بما نقلناه عن الرازي. والله أعلم.

---

(١) التفسير الكبير، للرازي (٣٢/ ٣١٩).

(٢) تلوين الخطاب: دراسة في أسلوب القرآن الكريم، لأحمد تيجان، ص٩٥.

ومهما يكن من أمر؛ فالموضع المراد وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾[الكوثر: ١- ٢]، فيه إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات من التكلّم إلى الغيبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: (فَصَلِّ لنَا)، فصرَّح بالاسم الظاهر دون الضمير؛ تعظيمًا وتفخيمًا للربّ وللصلاة له؛ لِما في لفظ الربّ من الإيماء إلى استحقاقه العبادة، لأجل ربوبيته؛ فضلًا عن إنعامه البالغ[(١)].

وفيه كذلك إشعار بأنّ المتكلّم هو ربٌّ يُمِدُّ بعطاءات الرُّبوبيّة دوامًا، فمِن حقِّهِ على مَرْبُوبيه أن يَعْبُدوه بمختلف أنواع العبادات، ومنها الصلاةُ له، ونَحْرُ الهَدْيِ ابتغاءَ مرضاته[(٢)].

وفيه أيضًا التأنيس بذكر اسم الربّ وإضافته إلى ضمير النبي ﷺ، إذ المقام فيه نوع تسلية لِما داخله من الحزن أنْ شنَأه بعضُ الشانئين.

وفيه ما أشار إليه الرازي في هذا النصّ من السّيْر على طريقة القرآن في حراسة التوحيد وحياطته، وذلك أنَّه إذا أمر بالإخلاص والتوحيد والعبادة لم يُعبِّر بضمير (نا) الدالّ على الواحد المعظّم، لرفع احتمال التعدُّد والتشريك، وللتصريح بالتوحيد في العبادة.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ٥٧٤).

(٢) البلاغة العربية، للميداني (١/ ٤٩٦).

ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام: ٨٣]، أظهر في موضع الإضمار على طريقة الالتفات من التكلُّم للغيبة، فلم يقل: (إنّا حكماء) أو نحو ذلك، كما هو مقتضى الظاهر. ولعلَّ السبب في ذلك أنَّه غير جارٍ على الأسلوب القرآني، لاقتضاء المقام التوحيد، وقلَّما تُجمع الأوصاف الحسنى. فإن قيل: فلِمَ لم يُضمر مع الالتفات، وكان مقتضى ذلك أن يقال: إنه حكيم عليم؟ فالجواب: لعلَّه أظهر لعلَّتين؛ الأولى: رفع الوهم بعَوْد الضمير على إبراهيم؛ إذْ هو أقرب مذكور يصلح عود الضمير المفرد عليه. والثانية: أنَّ في الإظهار تعظيمًا للربّ وتقريرًا للحُكم، وتشريفًا للمربوب المضاف اسم الربّ إلى ضميره، واسترعاءً لانتباه السامع بهذين الأمرين: الالتفات والإظهار في موضع الإضمار، وفيه كذلك الإشعار بعلّة الحُكم؛ إذْ من مقتضى الربوبية الحقّة كمال الحكمة، والعلم المحيط. والله أعلم

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[الرعد: ٤١]، فيه التفات من التكلُّم إلى الغيبة، مع التصريح بالاسم الأجلّ في موضع الإضمار؛ تعظيمًا وتفخيمًا، وتربية للمهابة، وتحقيقًا لمضمون الخبر بالإشارة إلى العلّة[1]. وفيه إلى ذلك ما

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٥/ ٢٨).

اقتضته العبارة عن التوحيد؛ فلو كان قيل: (ونحن نحكم لا معقب لحكمنا)؛ لأوهم التشريك. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩]، ذكر الاسم الظاهر في موضع المضمر على طريقة الالتفات في موضعين، وكان مقتضى الظاهر: (فسبّح بحمدِنا)، (واعبُدْنا)، وللإضافة إلى ما فيه من التأنيس المذكور في موضعه، فإنَّ فيه دفْعَ توهُّم التشريك، بجمع ضمير المعبود. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]، فيه الإظهار في مقامٍ يحتمل الإضمارَ والإظهارَ لمكان الحكاية، فتقدير الكلام: بعثناهم فقلنا لهم: (قولوا للناس: "اعبدوا الله")، فَلِمَكان الحكاية حسُن الإظهار. وحسُن كذلك؛ لأنه لو أضمر لقال: (أن اعبدونا)؛ فأوهم التشريك. ولذا كان الإظهار في هذا الموضع هو المقتضى. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[الكهف: ١٣]، أظهر في موضع الإضمار على طريقة الالتفات؛ دفعًا لتوهُّم التشريك، فلم يقل: (إنهم فتية آمنوا بنا)، وقد تقدَّم الإخبارُ عن

القَصِّ بضمير العظمة تفخيمًا للقِصَّة، وتأخَّر الإخبار عن زيادة هدايتهم بضمير العظمة أيضًا تفخيمًا للهداية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾[الفرقان: ٢٠]، أظهر اسم الربّ في موضع الإضمار على طريق الالتفات من التكلّم إلى الغيبة؛ لتربية المهابة، وإدخال الروع، وتقوية داعي المأمور تعريضًا بالصبر، وتقوية الرجاء للنجاة من الفتنة، وأيضًا ليتأتى مجيئها على الأسلوب القرآني بالتوحيد، وعدم جمع وصف البصير في حقّ الربّ ﷻ. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، فيه إظهار في موضع الإضمار على طريقة الالتفات، فلم يقل: (فاعبُدْنا)؛ لدفعِ إيهام التشريك. والله تعالى أعلم.

***

الخاتمة:

في ختام هذه الرحلة يطيب لي أن أختم بحثي باستخلاص أهمِّ نتائجه، وما يترتَّب عليه من توصيات.

أولًا: أهم النتائج:

١. بيَّنت الدراسة أنَّ أسلوب الإظهار في مقام الإضمار نوعٌ من التكرار الأسلوبي. وهو مِن أبرزِ المظاهر الأسلوبية لائتلاف القرآن الكريم وتساوقه.

٢. استظهرَت الدراسة أنَّ أسلوب الإظهار في مقام الإضمار، وإنْ كان دائرًا في كلام العرب وأشعارهم، لا يُوازَن بين شيوعه في كلامهم وبين شيوعه في القرآن الكريم؛ ففي القرآن لا تكاد تفقده في صفحة من المصحف؛ بل ربما جرى في الآية الواحدة مِرارًا.

٣. اقترحَت الدراسة مجموعة من المحددات لتقويم بلاغة الإظهار في مقام الإضمار وجمالياته، وهي:

أ. إذا أعيد الاسم في جملة مستقلة لفظيًّا عن الجملة التي ذُكِر فيها أولًّا كان إظهاره مُحتملًا.

ب. كلّما كان هناك مناسبة ظاهرة للتكرار كالتفخيم والتقرير والتلذُّذ باسم المذكور ونحو ذلك؛ كان الإظهار أحسن. وكلّما اجتمع لذلك أكثر من غرَض ازداد الإظهار حُسنًا، وكلّما تأكّد غرَضٌ منها وكان شديد الاعتبار؛ كان الإظهار كذلك أحسن.

ج. وكلّما كان التوهُّم في مرجع الضمير محتملًا كان الإظهار مُتعيَّنًا.

د. كلّما طال الفصل في الكلام المتّصل لفظًا كان الإظهار أحسن.

هـ. كلّما كان الجرس الصوتي للمُظهر في التركيب أوقع في السمع كان الإظهار أحسن.

و. كلّما أمكن الإظهار ثانيةً بلفظ مرادِفٍ للمُظهَر أوَّلًا، وكان هذا المرادف يُضيف معنًى مناسبًا للسياق؛ كان الإظهار أجمل.

والموازنة بين هذه المحدّدات الستة يتجلَّى فيها عملُ البليغ؛ ولذا كان الإظهار في موضع الإضمار قضاءً يقضي به المتكلّم، فكلّما كان هذا المتكلّم بليغًا كان أحرى أن يُصيب في قضائه، وكلّما كان الكلامُ منظورًا إليه كان التعنّي لذلك مؤكَّدًا، وكان الأمر جديرًا بحسبان المخاطرة.

٤. وعليه فإنَّ الدراسة تعلِّل شيوع هذا الأسلوب في القرآن بأكثر من شيوعه في كلام العرب بأنَّ القرآن كلام الحكيم الخبير الذي أحكم كلّ شيء، وأحاط بكلّ شيء عِلْمًا، فليس ثمَّ مخاطرة يقرّرها المتكلِّم، وإنما هو ميزان الذي أنزل الكتابَ بالحقِّ والميزانَ.

٥. قدَّرت الدراسة أنَّ أكثر ما يقع هذا الأسلوب في القرآن الكريم في إظهار الأسماء الحسنى في مواضع إضمارها، لا سيما الاسم الأجلّ (الله)، واسم (الربّ) المضاف إلى الاسم الظاهر تارة، وإلى الضمائر تارة أخرى. وإنما كان مجيئه في الأسماء الحسنى بهذه الكثرة -في تقدير الباحث- لأمرين:

الأول: أنَّ الخطاب القرآنيّ منعقد حول الأسماء والصفات، فهي قضيته الأولى، ومقصده الأجلى.

الثاني: تعدُّد الأغراض الكامنة في إظهار الأسماء مقام إضمارها بما لا يتأتّى لغيرها، فالأسماء الحسنى تقتضي من التعظيم وتربية المهابة وتقوية الرجاء وتستجلب من التلذُّذ والاستئناس والتلذيذ والتأنيس ما ليس في غيرها، وهذا وحده كافٍ لتحسين إظهارها أكثر من غيرها، كذلك؛ فإنَّ الاسم الأجلّ ينعقد على معاني الأسماء والصفات ويقوم مقامها، فكثر إظهاره في مقام الإضمار إظهارًا لعلّة الأحكام والأوصاف.

٦. أشارت الدراسة إلى أنَّه كثيرًا ما يقع الإظهار في مقام الإضمار مع الالتفات من التكلُّم للغيبة أو الخطاب أو نحو ذلك، فيعظم المحصول البلاغيّ من ذلك، بما يؤكّد أن للقرآن القِدْح المُعَلّى، واليد الطولى في ميدان البلاغة ومضمارها.

٧. حاولَت الدراسة التأريخ لتناول هذا الأسلوب في كلام العلماء، وبيَّنت أنَّ العلماء قد نوَّهوا به من قديم، وإن لم يتوسّعوا في التنويه بمواضعه في القرآن الكريم، ولم يزيدوا في عدِّ أغراضه على التفخيم والتعظيم.

٨. كشفت الدراسة أنَّ الزمخشري أحد الذين طوَّروا البحث في هذا الأسلوب، فزاد في تفسيره مواضع عديدة، وأضاف له أغراضًا حملها عنه مَن

جاء بعده، وأنَّ الزركشيّ دوَّن أول مسرد جامع بكثير من هذه الأغراض المحرّرة مع التمثيل لها، وأنَّ أبا السعود العمادي ممن أطالوا النَّفَس في تتبُّع كثير من مواضعه وتحرير أغراضه.

وبالجملة؛ فقد أكَّدت الدراسة أنَّ البحث البلاغي من خلال التناول التطبيقي للآيات القرآنية يتجاوز كثيرًا القوانين البلاغية التي امتلأت بها كتب البلاغيين، ولو واكب التقعيد البلاغي ما دوَّنه المفسِّرون لتجاوز كثيرًا من أوجه القصور التي تؤخذ عليه. والعجب أنَّ بعض العلماء الذين جمعوا بين التصنيف في البلاغة وفي التفسير يُقعِّدون في كتاباتهم البلاغية ما يتجاوزونه في تفاسيرهم.

٩. أحصت الدراسة للإظهار في مقام الإضمار أغراضًا عديدة من كلام العلماء؛ منها: قصد التعظيم، وقصد الإهانة والتحقير، والاستلذاذ بذِكْر المظهَر، وزيادة التقرير، وإزالة اللَّبْس، وتربية المهابة وإدخال الرَّوْعة، وتقوية داعي المأمور، والتنبيه على علَّة الحكم، وقصد العموم، وقصد الخصوص، والاستعطاف، وتحقيق الوصف، والتقبيح والتفظيع وتهويل الخطب، وتقوية استقلال الجُمَل، وتسيير الجُمَل مجرى المثل.

١٠. بيَّنت الدراسة أنَّ لأسماء الله تعالى خصوصية ليست لغيرها فيما يتعلَّق بتعليل أغراض إظهارها في مقام الإضمار، وإذا كان الواجب على المتدبِّر لكتاب الله أن يجتهد غاية الاجتهاد في تأمّله، ثم يتمهَّل في قبول ما يقع له؛ حتى

يطمئن لجوازه ومناسبته؛ فإنَّ ما كان من ذلك متعلِّقًا بأسماء الله الحسنى أحقُّ بالتدقيق والتحقيق.

١١. قسَّمت الدراسة الأغراض المذكورة من حيث صلاحيتها لتفسير التصريح بالأسماء الحسنى في مواضع الإضمار إلى أقسام:

الأول: أغراضٌ يمكن أن يُقال بها في جميع مواضع إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار، وهي: التعظيم، وزيادة التقرير، وتربية المهابة. ومن الأغراض الصالحة في جُلِّ مواضع إظهار الأسماء الحسنى في مقام إضمارها: الإشعار بعلّة الحُكم أو الوصف.

الثاني: أغراض لا يمكن أن تقع في كلام المؤمن بالله وبأسمائه وصفاته، مثل التحقير أو الاستهزاء، وقد تقع في كلام الكافر المنكر لأسماء الله ﷻ وصفاته.

الثالث: أغراض لم تقع -في حدود البحث- في هذا الباب. وهي قصد العموم، وقصد الخصوص.

الرابع: أغراض تحتمل أن تكون مرادة في مواضع دون مواضع، ومثالها باقي الأغراض؛ كتفظيع الأمر وتهويله، والتلذُّذ، وتقوية داعي المأمور.

١٢. لخصَّت الدراسة أغراض إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار -مع ضم النظائر وتحرير الفروق- فيما يأتي: التعظيم وتعظيم الأمر، وزيادة

التقرير والتمكين والتأكيد، والإشعار بعلة الحكم أو الوصف، والإشعار باستقلال الجمل، وإجراء الجملة مجرى المثل والكلم الجوامع والتذكرة المركَّزة، وتربية المهابة وإدخال الرَّوْع في رُوع السامع، والاستقباح وتهويل الخطب، وتقوية داعي المأمور، والتلذذ والاستئناس، ورفع اللبس.

١٣. أضافَت الدراسة أغراضًا صالحة لتفسير إظهار أسماء الله الحسنى في موضع إضمارها، مع تقديم الأمثلة عليها، وهي: التوسُّل، وتقوية الرجاء، والتلذيذ والتأنيس، ودفعُ توهُّم التشريك في مقام التوحيد.

١٤. سجَّلت الدراسة بعض مظاهر ائتلاف القرآن المتعلّقة بالإظهار في موضع الإضمار؛ كأنْ يأتلف إظهار الأسماء الحسنى في مقام الإضمار مع إظهار بعض الأسماء الأخرى في الآية الكريمة في مقام الإضمار، فيأتلف الإظهار مع الإظهار. وكذا أن يأتلف إظهار أسماء الله تعالى في جملة الوعد بإزاء جملة الوعيد، أو بجملة الترغيب بإزاء جملة الترهيب، أو بجملة الإيجاب بإزاء جملة السلب؛ لتتكافَئا وتتكاملَا في بيان قدرة الله ﷻ. وكذا يحصل الائتلاف بالخروج على مقتضى الظاهر بأمرٍ آخر غير الإظهار في مقام الإضمار؛ كالالتفات.

ثانيًا: التوصيات:

١. من المسائل الدقيقة التي مَسَّتْها هذه الدراسة مما يمكن استكمال بحثه واستيفاء أمثلته والكشف عن المزيد من جمالياته في أغراض إظهار الأسماء

الحسنى في مقام إضمارها: العادة الأسلوبية للقرآن الكريم في التعبير عن كثيرٍ من أسماء الله وصفاته، فلم يجرِ الأسلوب القرآني على جمعها إلا نادرًا، ولعلَّ ذلك إمعانٌ في دفع توهُّم التشريك. ولو التزم مقتضى الظاهر في كثير من مواضع الإظهار في مقام الإضمار لخرج عن هذه العادة الأسلوبية القرآنية. فيَقترح الباحث دراسة طريقة إيراد الأسماء وصفاته بين الإفراد والجمع، بإحصاء ما ورد منها مجموعًا، والكشف عن جمالياته، وإحصاء ما أُفرِد مما كان يقتضي الظاهر جمعه، وما أسبابه وجمالياته. فهذا الموضوع مما يُستخرج منه بحثٌ طريفٌ بإذن الله.

٢. من الموضوعات التي لم يُتَح لهذه الدراسة بحثها إلا بتقاطعها مع بعض المواضع اليسيرة فيها: جماليات الإضمار في مقام الإظهار، وجماليات الالتفات المتعلِّقة بالأسماء الحسنى في القرآن الكريم. فهذا أيضًا مما يمكن مواصلة البحث فيه.

٣. يمكن أن يُفرد بعض الموضوعات بالبحث في جماليات إظهاره في مقام إضماره على غرار هذا البحث؛ مثل: إظهار المؤمنين في مقام إضمارهم، وإظهار أصناف العصاة في مقام إضمارهم، وجماليات التصريح بالموصول والصِّلة في موضع الإضمار وأغراضه.

٤. وفي الجملة: يرى الباحث أنَّ التعمُّق في هذه الموضوعات مع التركيز الشديد بتضييق نطاقها الموضوعي مما يثري البحث البلاغيّ القرآني عمومًا،

والبحث البلاغي في هذا الموضوع خصوصًا. وقد أثبت الباحث في هذا البحث وفي بحث سابق أنَّ استظهار فهم هذا الأسلوب القرآني مفيدٌ في ترجيح بعض الأقوال التفسيرية المشكلة؛ فرجَّح بالارتفاق عليه، وعلى غيره من الأدلة؛ أنَّ قائل عبارة: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[يوسف: ٥٢- ٥٣]، هو يوسف ﷺ لا امرأة العزيز. فلا شكَّ أن هذا التدقيق البحثي في الأساليب القرآنية السائرة مفيدٌ في تأسيس الأقوال التفسيرية والترجيح بينها.

هذا، وما كان من توفيقٍ فَمِن الله العطاءُ والمنُّ، وله الحمد والشكر الحسن، وما كان من خطأ أو سهوٍ أو هفوةٍ فمنّي وبذنبي، أسأل الله بالغَ العفو، وسابغَ الستر، وأن يرزقنا حُسن الفهم عنه، وحُسن البلاغ عنه، وحُسن القيام بحقوق القرآن علمًا وعملًا وتعظيمًا وتعميمًا. والحمد لله ربِّ العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م.

٢. الآداب، أبو الفضل جعفر بن محمد شمس الخلافة (ت ٦٢٢هـ)، اعتناء: محمد أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد ابن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤. إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحّاس (ت ٣٣٨هـ)، اعتناء: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٥. أعيان العصر وأعوان النصر، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر المعاصر (بيروت)، دار الفكر (دمشق)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م.

٦. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السِّيد البَطَلْيَوسي (ت ٥٢١هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، د. حامد عبد المجيد، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٩٦م.

٧. الأمالي، جمال الدين ابن الحاجب عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس (ت ٦٤٦هـ)، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمّار (الأردن)، دار الجيل (بيروت)، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

٨. الأمالي، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن عليّ بن حمزة، المعروف بابن الشجري (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩١م.

٩. أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩١م.

١٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١١. إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٠هـ= ١٩٧١م.

١٢. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن عليّ الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٣. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشرة الدكتور/ حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ.

١٤. البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ= ١٩٥٧م.

١٥. البرهان في متشابه القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت بعد ٥٠٥هـ)، تحقيق: أحمد عز الدين خلف الله، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

١٦. بغية الرائد لما تضمّنه حديث أم زرع من الفوائد، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: ٥٤٤هـ)، تحقيق: أيمن بن حامد بن نصير الدسوقي، دار الذخائر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.

١٧. البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (ت ١٤٢٥هـ)، دار القلم (دمشق)، الدار الشامية (بيروت)، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.

١٨. التأصيل والتقعيد لأقسام الوقف والابتداء ومراتبه، محمود عبد الجليل روزن، المكتبة الخيرية، القاهرة، ومركز إحكام للبحوث والدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ= ٢٠٢١م.

١٩. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت ٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٢٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٢١. التفسير البسيط، أبو الحسن عليّ بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، أصل تحقيقه في خمس عشرة رسالة دكتوراه

بجامعة الإمام محمد بن سعود، أشرفت على نشره عمادة البحث العلمي- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٢٢. تفسير الراغب الأصفهاني من أول سورة آل عمران، وحتى الآية ١١٣ من سورة النساء، جزء من تفسير أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (من علماء القرن الخامس الهجريّ)، تحقيق ودراسة: د. عادل بن عليّ الشِّدِي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

٢٣. التفسير الكبير = مفاتح الغيب، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٢٤. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م.

٢٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٢٦. تلوين الخطاب: دراسة في أسلوب القرآن الكريم، أحمد تيجان أحمد صلاح، نشرة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الإصدار السادس والثمانون، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م.

٢٧. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، نشرة دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

٢٨. الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني (ت ٣٩٠هـ)، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

٢٩. جوهر الكنز: تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة، نجم الدين أحمد بن إسماعيل ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧هـ)، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية.

٣٠. حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، محمد بن عرفة الدسوقي (ت ١٢٣٢هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

٣١. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسمَّاة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري (ت ١٠٦٩هـ)، دار صادر، بيروت.

٣٢. خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.

٣٣. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.

٣٤. الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس شهاب الدين أحمد ابن يوسف بن عبد الدائم، المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

٣٥. درّة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ= ١٩٩٥م.

٣٦. دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: الأستاذ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة- دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م.

٣٧. ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.

٣٨. ديوان الطرمَّاح، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٣٩. ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق وجمع: محمد جبّار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

٤٠. ديوان مهيار الديلمي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م.

٤١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٤٢. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي.

٤٣. الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة محمد بن أحمد بن سعيد المكيّ (ت ١١٥٠هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين في عدّة رسائل جامعية، نشرة مركز البحوث والدراسات- جامعة الشارقة، الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٤٤. سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م.

٤٥. شرح أدب الكاتب، أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي (ت ٥٤٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٦. شرح ديوان الحماسة، أبو عليّ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (ت ٤٢١هـ)، تحقيق: فريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

٤٧. شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، وعليّ سيد عليّ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٤٨. صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار ابن كثير؛ دمشق- بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٤٩. صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجّاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة ط١؛ ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

٥٠. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن عليّ العلويّ (ت ٧٤٥هـ)، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٥١. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أبو حامد بهاء الدين أحمد بن عليّ السبكي (ت ٧٧٣هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

٥٢. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٥٣. فتاوى السبكي، أبو الحسن تقيّ الدين عليّ بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦هـ)، دار المعارف.

٥٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـ)، عناية: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٥٥. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت ٧٤٣هـ)، تحقيق: د. جميل بني عطا، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م.

٥٦. القطع والائتناف، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحّاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، المملكة السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٥٧. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، وبحاشيته: الانتصاف فيما تضمّنه الكشاف، لابن المنيّر الإسكندري (ت ٦٨٣هـ)، وتخريج أحاديث الكشاف للزيلعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٥٨. كشف الريب عن قائل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، د. محمود عبد الجليل روزن، مركز تفسير، على هذا الرابط: https://tafsir.net/research/84/

٥٩. الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، الصاحب ابن عباد، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

٦٠. ما يجوز للشاعر في الضرورة، أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز التميمي (ت ٤١٢هـ)، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، د. صلاح الدين الهادي، دار العروبة، الكويت.

٦١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، ضياء الدين ابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧هـ)، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٦٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٣. المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحقّ بن غالب ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٤. مدارج السالكين في منازل السائرين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار عطاءات العلم، الرياض- دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٤١هـ = ٢٠١٩م.

٦٥. مشكل إعراب القرآن، أبو محمد مكيّ بن أبي طالب الأندلسي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٦٦. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجَّاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٦٧. معاني القرآن، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.

٦٨. معاني القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحّاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد عليّ الصابوني، نشرة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٦٩. معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد عليّ النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى.

٧٠. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٧١. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن عليّ السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، اعتناء: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٧٢. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل. أبو جعفر؛ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، تحقيق: سعيد الفلاح، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

٧٣. النشر في القراءات العشر، أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣)، تحقيق: د. السالم محمد محمود الشنقيطي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٣٥هـ.

٧٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّور، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٧٥. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، د. محمد الحمود النجدي، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الخامسة، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م.

٧٦. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمد مكيّ بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ)، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي- جامعة الشارقة، بإشراف أ.د. الشاهد البوشيخي، نشرة: مجموعة بحوث الكتاب والسنّة-

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

٧٧. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

٧٨. الواو ومواقعها من النَّظْم القرآني، د. محمد أمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.